البدو والبادية فى تونس الحديثة
من خلال آثار الرحالة الأوربيين

الحبيب الجموسى[1]

يمكــن اعتبــار البــدو فى تونس كما فى بقيــة الوطن العربى من ضمن المنســيّين أو من «لا تاريخ لهم»، وذلك مقارنة بالحظوة التى نالتها طبقات الأعيان وأصحاب السلطة والجاه لــدى المؤرّخين والمخبرين والمحدّثين خلال مختلف الأحقاب التاريخية. ولم يرد ذكر هذه المجموعة المهمشة إلاّ عَرَضًا من خلال الحديث عن الصراعات السياسية فى البلاد العربية بصفــة عامة أو عندما يتحامــل عليهم الحضريون فيطلق المؤرّخون العنان لأقلامهم محمّلين البدو تبعات شتى أنواع الأزمات[2].

إلا أن البدو، خلال مختلف الأحقاب التاريخية، فرضوا وجودهم على المجتمعات العربية المتمدّنة برفضهم الرضوخ لمشــيئة أصحاب الســلطة وبثوراتهم المتتالية على مختلف الأنظمة السياســية. كما فرضوا نمط معيشتهم فى ترحالهم واســتقرارهم على المجتمعات الحضرية، فيمــا يمكن أن نعبر عنه اليوم «بالثقافة البدويــة» التى تحدت الزمن وخلّدت مخزونا ثقافيا بدويا يتألف من شــعر وغناء وأكل ولباس... اعتبارا لكل هذه المعطيات، نتســاءل عن موقع هذه الشريحة فى المجتمعات العربية فى الكتابات التاريخية والدراسات الأنتروبولوجية؟

يجد المؤرّخ نفســه دائما رهين المصادر التاريخية التى يعتمدها نظرا لما ســبق ذكره من تجاهــل المصادر العربية تاريخ المجتمعات البدوية عبر مختلف الأحقاب التاريخية، كثيرا ما يلتجئ المؤرّخ فى حقل أبحاثه وتقصّيه للواقع التاريخى إلى المصادر الغربية كلما استحثه شح المصنفات العربية الكلاسيكية المألوفة.

---

(١) أستاذ التاريخ الحديث – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – صفاقس، الجمهورية التونسية.

(٢) لعلّ ابن خلدون قد انفرد دون غيره من المؤرّخين والباحثين فى تاريخ المجتمعات العربية بالحديث المطول عن البدو والبادية وذلك يندرج فى صلب تحليله لتشــكّل العمران انطلاقا من مرحلة البداوة التى يعتبرها أمرا ضروريا و«إنّ البادية أصل العمران والأمصار مدد لها»، ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تقديم وتعليق الأستاذ خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت ٢٠٠١م، انظر «فصل فى أنّ البدو أقدم من الحضر وســابق عليه وأنّ البادية أصل العمران والأمصار ومدد لها»، ص ١٥٢.

وتبــدو كتب وآثار الرحّالة الأوربيين فى غالب الأحيان أكثر المصادر الغربية أهمية؛ إذ يمكن الاعتماد عليها لاســتقاء بعض الأخبار أو لتصحيح أخرى برغم ما تحتوى عليه تلك المؤلّفــات من نقائص. والفترة الحديثة هــى أكثر الفترات التاريخية حاجة إلى هذا الصنف من المؤلّفات كلّما تعلّق الأمر بكتابة التاريخ الاجتماعى والثقافى. فالمصنفات المحلية للفترة الحديثة أولت عناية خاصة بتاريخ البلاطات والحياة السياســية وأهملت إلى حد ما الحياة اليوميــة للمجتمعــات. أما الأوربيون الّذين توافدوا على البلاد التونســية خلال هذه الفترة بأعداد كبيرة، مرورا منها إلى مختلف مناطق البلاد العربية، فقد أطنبوا فى نقل شــهادات جــد طريفة حول مختلف أوجه الحياة الاجتماعية لكل أصناف التونســيين بعيدا عن كلّ الاعتبارات العرقية أو السياســية التى اعتمدهــا المؤرّخون المحلّيون فى تصنيفهم للمجتمع التونسى. بل أظهرت الدراسات الإنتنوغرافية والأنتروبولوجية الغربية منذ نهاية القرن ١٨ اهتمامــا خاصا بنمط العيــش البدوى بالذات بعيدا عن الصراعات السياســية/ الاجتماعية التقليديّة بين البادية والمراكز الحضريّة.

ذلــك ما سمح لنا رصد تطور البداوة كظاهــرة اجتماعية قديمة تغيرت ملامحها بتونس خــلال الفــترة الحديثة؛ إذ إن هــذه الفترة الانتقالية شــهدت أبرز الأحــداث والتقلّبات السياســية. فقد ســبقتها فترة الدولة الحفصيّة وهى فترة اســتقرار لنمط عيش بدوى انتشر داخل البلاد بين قســنطينة وطرابلس حيــث انتقل البدو دون قيود ولا حواجز[1]. وعمدت الإدارة الاستعمارية، منذ انتصابها، إلى تشديد الرقابة الحدودية بصفة واضحة وبالتالى إلى القضاء على نمط العيش البدوى وتثبيت القبائل المرتحلة فى مناطق قارة للسيطرة عليها.

أمّا خلال الفترة الحديثة، فيبدو أنّ الحكم المركزى قد فشــل فى الســيطرة الفعلية على البداوة المنتشــرة فى كامل أرجاء البلاد التونســية انطلاقا مــن المبادئ الحضرية «للتعايش الســلمى» كما فى فرض نظام الجباية على القبائل المستقرّة. لذلك اعتمد أصحاب السلطة، وخاصة منهم البايات الحسينيّين[2]، على جلب قسم من القبائل البدوية إلى صفهم واعتمدوا عليها فى مقاومة استعصاء أخرى.

---

(١) يذكــر ابــن أبى دينار أنّ الأعراب كانوا فى فترة الدولة الحفصية «فى قوة واســتحوذوا على جلّ البلاد كعرب إفريقيّة وأولاد أبى اللّيل وأولاد بو سالم...» ابن أبى دينار القيروانى (محمد بن قاسم)، المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م. ص ٢٢٨.

(٢) قامت الدولة الحسينية على يد حسين بن على التركى سنة ١٧٠٥م.

من هذه المنطلقات أصبح لزاما علينا تبنى «الزمن البنيوى» أو «الأمد الطويل» فى تمشينا لتقصى ميكانيزمات تدرج علاقة السلطة بالبدو من ناحية وللوقوف على تطور ظاهرة البداوة من ناحية أخرى، معتمدين فى ذلك على مادة إخبارية «غربية» ثريّة تسمح لنا بتسجيل أدقّ خصائص عادات وتقاليد البدو التى اندثر أغلبها بحكم التطور.

البدو والبادية فى المخيال الأوربى

الأوربيون والمجتمع التونسى خلال الفترة الحديثة:

عرفت الإيالة التونسيّة خلال الفترة الحديثة وبالتحديد ما بين القرنين ١٧ و١٩ اهتماما غير مسبوق من قبل الأوربيين، ذلك ما أدى إلى وصول عدد كبير من الرحّالة الغربيين إليها. ويمثل هؤلاء فئة مرموقة من المثقفين تعددت اختصاصاتهم وميولاتهم إذ نجد من بينهم الأدباء والأطباء والعلماء والعسكريين. وقد تركوا لنا آثارا جاءت فى شكل مذكرات شخصية أو رسائل لبعض الأصدقاء أو لأفراد عائلاتهم أو تقارير سرّية لمؤسّسات علميّة أو لأطراف سياسيّة ضمّت دراسات مختلفة الأهمية. وتبرز أهمية هذه الآثار على مستويين اثنين:

على مستوى المقارنة:

تبدو أهمية هذه الآثار واضحة إذا ما قارنّا بينها وبين المصادر التونسيّة للفترة الزمنيّة نفسها وخاصة كتابات المؤرّخين التونسيّين الذين كانوا فى مجملهم مؤرّخى بلاطات اجتهد جلّهم فى تمجيد أسيادهم من البيت الحسينى أو تحاشوا الدخول فى جزئيّات النظام والسلطة بتونس[1]. كما أنّهم غالبا ما أطنبوا فى سرد الأحداث السياسية وأولوا الصراعات والتناحر على الحكم اهتماما أكبر. وبالتالى أهملوا دراسة الظواهر الاجتماعية، فباتت دقائق

(١) بالنسبة لتاريخ الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة، نذكر على سبيل المثال:

ابن أبى دينار القيروانى (محمد بن قاسم)، المؤنس... المصدر نفسه، الوزر السرّاج (محمد)، الحلل السندسيّة فى الأخبار التونسيّة، تقديم محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٤م. الباجى (الصغيّر بن يوسف)، المشرع الملكى فى سلطنة أولاد حسين بن على تركى، تحقيق أحمد الطويلى، تونس ١٩٩٩م. ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشى، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٠م. محمود مقديش، نزهة الأنظار فى عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق على الزوارى ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٨م. ابن أبى الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق أحمد الطويلى، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٩م.

الحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل ومعاملات بديهيّة بالنسبة لهم إذ لم يعيروها أى اهتمام.

بيد أن هذه الجزئيات شدت انتباه الأجانب، بحكم انتماءاتهم الثقافية والحضارية الغربية. فلم يترك الرحالة الأوربيون، – الذين زاروا البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة – ظاهرة من الظواهر الاجتماعية إلا وسجلوها فى مذكراتهم وعلقوا عليها[1].

على مستوى الآثار فى حد ذاتها:

نتساءل هنا عن المميزات التى أهلت هذه الآثار لتلفت انتباه الباحثين وتجعل منها مصادر شبه وحيدة لدراسة الخصائص الاجتماعية للإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة!.

غالبا ما ينبهر الباحث أمام كثافة المعلومات التى تتضمنها آثار هؤلاء الرحالة كلما تعلق الأمر بطرائف الأخبار عن الحياة اليومية للتونسيين أو ما تقدم من دقيق الملاحظات عن الهياكل السياسية للدولة إذ إنهم جُبلوا – بحكم ثقافتهم واختصاصاتهم المتعدّدة – على «حب الاطلاع» مثلما عبّر عن ذلك الرحالة الإنجليزى Shaw Thomas [2] عندما ذكر فى مقدمة كتابه أن «الغاية المنشودة من السفر إلى هذه البلاد (شمال إفريقيا والمشرق) هو الاطلاع على ما يشدّ الانتباه وآلاف الغرائب الأخرى التى تبدو على غاية من الأهمية...»[3].

تكمن هذه الغرابة التى تحدّث عنها أشهر الرحّالة الغربيّين خلال القرن ١٨ فى ما تعلّق بالحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل أو ما ورد من إشارات جدّ دقيقة عن الحياة الثقافية. ولئن بدت هذه الخصائص الاجتماعية مألوفة وبديهية لمؤرخى تلك

---

(١) انظر:

Jamoussi (H), «Les voyageurs européens en Tunisie au XVIIIè S: des Chrétiens en terre d'Islam», in Actes de la IVè rencontre internationale sur: Occident – Orient: Aux origines du dialogue islamo – chrétien (XVI è – XIX ès), F. T. E. R. S. I, Zaghouan, sep 2002, pp.24 – 39.

(٢) من أشهر الرحالة الأوربيين. قام برحلة إلى شمال القارة الإفريقية خلال سنة ١٧٢٤م كما زار مصر والشام. يعتبر الكتاب الذى خلفه هذا الرحالة من أشهر كتب الرحلات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إذ أصبح مرجعا لكل الأوربيين الذين زاروا هذه المناطق.

(3) Shaw (T), Travels observations relating to several parts of Barbary and Levant, Oxford, 1738, Traduit en français par Jean Neaulm, Voyage de Mr Shaw, MD..., La Hay 1742, introduction.

الفترة ولا تبعث على الاستغراب حتى تصنف من بين المواضيع المؤهلة للتمحيص، فهى تصبح بالنسبة لنا مادّة أوّلية يمكن الاعتماد عليها فى كتابتنا للتاريخ الاجتماعى التونسى للفترة الحديثة.

صورة البدوى فى المخيال الأوربى:

الصورة التى رسمها جلّ الرحالة الأوربّيين للبدو فى تونس خلال الفترة الحديثة هى عبارة عن تمثيل لما عجزوا عن فهمه على أرض الواقع إن كان ذلك على مستوى تحديد جذورهم التاريخّية أو فى إطار تصنيفهم من حيث نمط عيشهم الّذى يميزهم عن بقية سكان البلاد وتحديدا سكان المدن. وتتبلور هذه الصورة ضمن المرجعيات الغربية التى اعتمدوها فى فهمهم «للآخرين» من خلال التصور الغربى للعالم الخارجى بصفة عامة والشرقى بصفة أدق.

صعوبة فى تحديد الهوية:

تبرز هذه الصعوبة كلما حاول هؤلاء الرحالة تصنيف البدو داخل المجتمع التونسى أو كلما حاولوا تحديد جذورهم التاريخية. فالمصطلحات التى استعملها الأوربيون فى حديثهم عن البدو لم تكن موحّدة بل اختلفت حسب الفترات الزمنية وحسب ما تراءى لهم من نمط عيش هذه المجموعات البشرية فى ترحالها أو فى استقرارها.

ولعل عبارة «العرب» هى الأكثر استعمالا على امتداد العصور وإن كانت فى دلالاتها تختلف عن عبارة «الأعراب» أو «العربان» التى غالبا ما كان يطلقها سكان الحواضر على سكان البوادى والأرياف. كما أن نطق بعض المخارج الصوتية كان يحول هؤلاء الغربيّين دون إبراز الفوارق بين مختلف العبارات. فاستعمالات عبارة Arabe (s) الدارجة فى كتب الرحالة لا تفرق بين «عربى» و«أعرابى» و«أعراب» والحال أنّ هذه العبارات لها دلالات مختلفة لا يقف على دقتها إلا من كان عارفا بخفايا اللغة العربية. وربما عجز حتى المستشرقون منهم على تحديدها. فمثلا، يتحدث Shaw فى بداية القرن ١٨ عن «العرب المتشردين» أو «العرب قطاع الطرق» دون أن يحدد المناطق التى يقطنها هؤلاء. بل يضيف أنّ «هؤلاء الحرايمية[1] الذين ننعتهم فى بلادنا بالعرب المتوحشين.. شأنهم شأن

(١) استعمل عبارة «Haramees» وهى عبارة شرقية.

كلّ العرب دون استثناء، متساوون وتحدوهم الطباع الخبيثة نفسها كلما توفرت لهم فرص السطو والقتل»[1].

وفى السياق نفسه، لا يفرق قارئ كتاب الأب Poiret [2] بين العرب والبربر من سكان المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر. فهذا الرحالة الفرنسى يتحدث عن سكان شمال إفريقيا مستعملا عبارة «Arabes» وهو فى حقيقة الأمر يتحدث عن «الأعراب» الرحل من القبائل التى تتنقل داخل المنطقة[3]. فتختلط المفاهيم فى ذهن القارئ الذى لا يتسنى له أن يفرق بين «العرب» الحضريين و«الأعراب» أو «العربان» من القبائل العربية والبربرية.

أمّا عبارة «بدوى» «Bédouin» فلم تكن دارجة إلى حدود القرن ١٩ [4]. استعملها Peyssonnel [5] فى تصنيفه للمجتمع التونسى إذ يتحدث عن: «البدو والعرب الفلاحين الذين يمثلون الطبقة الوضيعة من المجتمع»[6]. إلاّ إنه يتحدّث عن «البدو أو المور الّذين يسكنون الريف» فى مواضع أخرى من الكتاب وتحديدا عندما يصف نمط عيش البدو[7]. أمّا Venture De Paradis[8]، فقد استعمل عبارة البدو مثلما سمعها عن سكان الحاضرة «مثلما يقول أهل البلاد». ثم كتبها مثلما نطقها «Bedvois». وقد حاول تدارك العجز فى النطق فأضاف مباشرة بعدها «أو العرب الذين يسكنون الخيام»[9]. ولم تصبح هذه العبارة دارجة إلا خلال الفترة الاستعمارية.

---

(1) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1, introduction.

(٢) زار تونس سنة ١٧٨٩م وجاب كامل المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر.

(3) Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785/ 1786... Paris 1789, p. 54.

(٤) حسب المعجم الفرنسى Le petit Robert دخلت هذه العبارة إلى اللغة الفرنسية فى حدود سنة ١٥٤٦م وتعنى عرب الصحراء الرحل.

(٥) زار تونس سنة ١٧٢٤م فى إطار بعثة علمية قادته عبر إيالتى تونس والجزائر. وهذا العالم فى النباتات قدّم إلى جانب دراسته لكل أنواع النباتات والأشجار التى صادفها فى طريقه، وصفا دقيقا لنمط عيش التونسيين آن ذاك.

(6) Valensi (L), J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger, La Découverte, Paris 1987, p.79.

(7) Ibid., p. 81.

(٨) مستشرق، شغل منصب مترجم بالقنصلية الفرنسية المعتمدة فى تونس ما بين ١٧٨٠م – ١٧٨٦م وشارك سنة ١٧٩٨م فى الحملة الفرنسية على مصر.

(9) Cuoq (J), Venture De Paradis, Tunis et Alger au XVIIIè S, Paris 1983, p.49.

كمـا صنف الرحالة الأوربيـين البدو من بين الـ Maures. وهذه العبارة اسـتعملت على مختلف العصور لنعت شـعوب ومجموعات متعددة فى بلاد المغرب. فالإغريق استعملوا عبارة Moros فـى حديثهم عن البربر سـكان شمال إفريقيا واسـتعمل الرومـان Mori للمجموعة نفسـها. كما نعت بها المسـيحيّون مسلمى أسبانيا «المورسـكيّون» Moriscos. ومنذ انتصاب الحكم التركى بتونس أصبحت عبارة Maures تعنى فى السياق المجموعة التركية التى قدمت إلى تونـس فى خضم الصراع العثمانى الأسـبانى. ويختلط الأمر لدى أبى الحسـن الوزان[1]، إذ إنـه يعتبر بعض سـكان المناطـق الصحراوية المتاخمة للأراضى الليبيـة، وهم من «العرب الرحل يعيشون هناك حفاة عراة، أقرب إلى المور – الذين يسكنون العاصمة – من غيرهم»[2].

ونظرا لهذه الصعوبة فى تحديد مصطلح موحد يطلق على البدو رحلا كانوا أو مستقرين حـاول أغلب الرحالة الأوربيين تقريب الفهـم لقرائهم معتمدين على عبارات غربية تؤدى معنى نمط عيش هذه المجموعات. فاستعملوا: Ruraux (ريفيون) Pastoraux (رعاة رحل) Bergers (رعاة مستقرون) Nomades (الرحّل المتنقلون وغير المستقرين). أو أنهم صنفوهم حسـب مناطق استقرارهم أو مجالات ترحالهم. فتحدث البعض عن Les Montagnards «الجبالية» (وهم سـكان جبال عمـدون ومقعد الفاصلة بين تونس والجزائر) أو «الشـلوح» وهـم بدو المغـرب الأقصى و«القبايل» Les Kabyles أى سـكان منطقة القبايل بالجزائر[3] أو الصحراويين Les Sahraouis وهم سـكان الصحراء الذين يذكرهم De Paradis بقوله: «وهم سكان المناطق المتاخمة للصحراء فى شريط هائل يمتد من تافيلات بالمغرب الأقصى إلى

---

(١) هـو أبو الحسـن الوزان من مدينة فاس المغربيـة. أصبح يعرف بليون الإفريقى Léon l'Africain بعد أن وقع أسيرا بين يدى المسيحيين وتنصّر فى روما فى حدود سنة ١٥٢٠م.

(2) Léon (l'Africain), De l'Afrique, contenant la description de ce pays, t.1, traduit par Jean Temporal, Paris 1830, p. 210.

انظر الترجمة العربية: الحسن بن محمد الوزان الفاسى، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجى ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣م.

(٣) «يلقب سـكان الجبال بالمغرب الشـلوح والقبايل بالجزائر. أمّا بتونس فيلقب البدو من سكان الجبال، الجبالية وخاصة أولئك الذين يقطنون الجبال السـاحلية الشـمالية وجبال الكاف الّذين يغطون رؤوسـهم ويتركون لحاهم وبهذا يختلفون عن الشـلوح والقبايل وعن الوسـلاتيين (سكان جبل وسلات) الذين يحلقون لحاهم ويتركون شواربهم ورؤوسهم عارية يحلقون جوانبها ويتركون خصلة شعر فى أعلى هممهم».

Cuoq (J), Venture De Paradis...op.cit. , p. 49.

مملكة طرابلس»[1]. أو سكان الواحات Les Oasiens وهى المنطقة التى يحددها Thomas Shaw «من المحيط الأطلسى إلى مصر والتى يسميها جغرافيو هذا العصر ببلاد الجريد وهى العبارة التى تعنى بالعربية بلاد الجفاف»[2].

قـد يعود الخلط بين كل هـذه المصطلحات إلى عدم قدرة هـؤلاء الأوربيين على تحديد موقع هذه الشريحة من المجتمع التونسى والمغاربى إجمالا وخاصة إلى اختلاف أرهاط البدو والقبائل البدوية التى صادفوها فى طريقهم عربا كانوا أو بربرا. فهى تارة مجموعات صغيرة مغيرة و«متوحشـة» وتارة قبائل مسـتقرة فى مكان واحد فى خيام أو فى منازل من الطوب داخـل قرى صغيرة (الدوار) أو متنقلة من مـكان لآخر بحثا عن الكلأ والمراعى أو المتاجرة بين مناطق جنوب الصحراء وبقية تراب البلاد التونسية.

ذلـك مـا يبرز أن العنصر البدوى لم يكن موحدا فـى تونس وفى المغرب العربى إجمالا حيـث إن البدو اختلفوا باختلاف مواطن اسـتقرارهم وترحالهم، جبالا كانت أو سـهولا أو سباسـب أو مناطـق صحراوية. و بالتالى تفاعل كل عنصر مـع البيئة التى انتمى إليها. فاختلفـت عاداتهـم وتقاليدهم، إلى جانب اختلاف لهجاتهم التـى تنحدر من البربرية[3] أو من العربية. وكانت فى بعض الأحيان خليطا بين اللّغتين.

أمّـا عن جذور البدو التاريخية فقد حاول الرحالة الأوربيين تحديدها اعتمادا على المصادر الغربيّـة من كتـب المؤرخـين الرومـان (Tite live, Aristophane, Augustin, Cicéron, Strabon,) والمصادر الدينية (الأناجيل والقرآن) وبعض المصادر العربية (الإدريسـى والبكرى وابن حوقل وابن خلدون). أو أنهم اعتمدوا على اشتقاق بعض الأسماء. فقبيلة «النمامشة» التى اتخـذت مجالا لهـا على امتداد قرون عديدة المنطقة الحدودية التونسـية الجزائرية، أوحت

(1) Ibidem.

(2) Shaw (T), Travels observations... op.cit., t.1, p. 3.

(٣) يذكـر ابـن خلدون لهجة البربـر فيقول: «... ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميـزة بنوعها وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الاسم...» ويضيف أنّ «إفريقش بن صفين من التبابعة لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم... تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة...» ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشـأن الأكبر، تحقيق خليل شـحاذة، دار الفكر، بيروت ٢٠٠١م، جـ ٦ ص ١١٧.

إلى Marmol [1] بعبارة Numides. وقد اعتبرهم «السكان الأصليين لشمال القارة الإفريقية» ومن هذه التسمية اشتقت عبارة «Nomades»[2]. واعتمد الدبلوماسى الفرنسى De Paradis على التفسير نفسه إذ اعتبر أن «النوميديين خلدوا اسمهم فى قبيلة كبيرة تسمى إلى يومنا هذا النمامشة تقطن منطقة تبسة على الحدود الجزائرية التونسية، وهى من أصل بربرى»[3].

ويضيف Marmol أن «هذه القبائل من الرحل استقروا فى بادئ الأمر فى المناطق الغربية من شمال إفريقيا وتفرقوا فيما بعد فى مناطق عديدة... وقد سكنوا الأرياف فى شكل مجموعات تحت الخيام لأنهم يمتلكون قطعانا هائلة من الماشية... إلا إنه على مر الأزمنة حدثت بينهم حروب عديدة سيطرت على إثرها بعض القبائل على السهول واضطرت القبائل المنهزمة إلى الالتجاء إلى الجبال حيث اختلط أهاليها بالأفارقة الأولين و قلدوهم فى بناء المنازل لاتقاء تقلبات الطبيعة»[4].

أما Thomas Shaw، وقد نقل عنه جل رحالة القرنين ١٨ و١٩، فقد نسب البدو العرب إلى إبراهيم جد اليهود والمسيحيين الذى انحدر منه فرع اليهود عن طريق زوجته سارة وفرع العرب عن طريق جاريته هاجر[5].

ومن ناحيته، اعتبر Guérin [6] أن «العرب الذين يسكنون تحت الخيام كانوا قبل مجىء الأتراك أكثر عددا من سكان المدن والقرى. إلا أن سياسة القمع التى توخاها الأتراك

---

(١) أسبانى الأصل، شارك فى الحملة التى قادها الملك الأسبانى شارلكان ضد تونس سنة ١٥٣٥م ومكث هنالك مدة عشرين سنة. ثم وقع أسيرا واقتيد إلى المغرب الأقصى حيث مكث ما يناهز السبع سنوات ذلك عندما سمح له أن يكتشف عن كثب كامل شمال إفريقيا ومصر حيث تنقل صحبة قوافل تجارية مغربية.

(٢) «لقب الإغريق سكان الصحراء الليبية Nomades واللاتينيون Numides وهم يقطنون الخيام مثل العرب ويتنقّلون من هنا وهناك على ظهور جمالهم».

Marmol, L'Afrique de Marmol, traduction Nicolas Perrot, 3 tomes, Paris 1667, t.1, p.73.

(3) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 49.

(4) Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 68.

(5) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1,

ذلك ما يؤكده ابن خلدون الذى ينسبهم إلى «ولد كنعان بن حام بن نوح...» انظر ديوان المبتدأ... المصدر نفسه، جـ ٦ ص ١٢٧. وذكر كذلك أن «إفريقش بن ضبيع الذى سميت به إفريقية ترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير بعد غزوه لشمال إفريقيا فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا فى إعدادهم...» المصدر نفسه، ص ١٧.

(٦) مختص فى علم الآثار. قام خلال سنة ١٨٦٠م برحلة علمية قادته عبر كامل تراب الإيالة التونسية.

تجـاه أقوام البدو الرحل التى قاومتهم قلصت من عددهم حتى أصبح اليوم سـكان الخيام أقل عددا من سكان المدن والقرى»[1].

نحـن إذن أمام مجموعة مـن المصطلحات والمرادفات المختلفـة، تطورت وتغيرت عبر العصـور بتغير المعطيات السياسـية والاقتصادية والاجتماعية: البادية والريف، البدوى والريفى والفلاح، العربى والبربرى.

ما هو إذن المصطلح الذى يتلاءم ونمط عيش «البدو»، هذا الصنف من المجتمع الذى عمر شمال إفريقيا منذ أقدم العصور قبل مجىء العرب المسـلمين وخاصة قبل «الزحف الهلالى» (٤٤١ هـ/ ١١٤٦م) الذى نشـر «نمـط العيش البدوى» فى أرجاء إفريقية حسـب المصادر العربية؟! وهل للبداوة جذور عربية فحسب أم أنها تمثل «نمط عيش» قديم ارتبط فى شمال إفريقيا كما فى الجزيرة العربية بالبادية؟ وهل للبادية المفهوم نفسه على امتداد العصور؟!

تجمَـع المعاجم العربية[2] «البادية بباديات وبـوادى، أى الصحراء، خلافا للحضارة». والبـدوى يعرف «بسـاكن الباديـة من القبائل العربيـة الرحل». و«البـداوة: هى الظاهرة الاجتماعية للعيش فى البادية».

تكتفـى هذه التعاريـف المختلفة بربـط البدو والباديـة بقفار الجزيـرة العربية كما تقتصـر على تعريف «البادية» بضدها «خلافا للحضـارة» وهى فى نهاية الأمر لا تحدد الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبدو، وحتّى ابن خلدون فهو لم يسعفنا ولم يوضـح أكثر من كون «البـدو نوعان يجتمعان للتعاون على تحصيله (المعاش)، منهم من ينتحل الفلح من الغراسـة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشـاة والبقـر والمعز والنحل والـدود...»[3]. واكتفى بتقديم وصف دقيق لنمط عيش من عاصروه مـن البدو. لكن، هل ينطبق ذلك على كل أصنـاف البدو فى كل أطراف البلاد العربية وخلال كل الأحقاب التاريخية؟

أمـا فى ذكـره لأصول البربر فابن خلدون يتحدث عن «أجيال من الآدميين هم سـكان المغرب القديم... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشـجر ومن الشـعر

(1) Guérin (V), La Régence de Tunis, t2, Paris 1862, 2 tomes, t. 1, p. 49.

(٢) من بينها ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.

(٣) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٦٥.

والوبـــر، ويضعـــن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار. ومكاسبهم الشاة والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب...»[1].

يبـــدو جليـــا أن ابن خلدون فرق بين صنفين من البدو: «البدو العرب» و«البدو البربر». إلا أن نمط عيشهما يتطابق بحكم ارتباطهما بالبيئة والإطار الجغرافى نفسهما. كما أن القيم الأخلاقية التى اتصف بها «البدو البربر» لا تختلف فى شـــىء عما نســـب للعرب و«للبدو العرب» على وجه الخصوص. فقد جبل البربر، حسب ما ذكره ابن خلدون، «على الخلق الكريـــم... من عـــز الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمة والوســـائل والوفـــاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات فى الشدائد... وقرى الضيف والإعانة على النوائب...»[2].

البـــداوة إذن، هـــى «نمط عيش» تفاعلـــت فى بلورتـــه عناصر طبيعية مادية وبشـــرية وحضارية. والبادية لا تعنى القفار والصحارى فحســـب، أى المشـــهد الجغرافى، إنما هى مجـــال تفاعلت فيـــه المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمجموعة بشـــرية معينة. وولـــدت هذه المعطيات ما يمكن التعبير عنه «بنمط العيش البدوى»[3]. وبالتالى تكون البداوة مفهوما متطورا حســـب العصور والأحقـــاب التاريخية. فأرياف العصـــر الحديث والمعاصر ليست البوادى التى كانت منتشرة خلال العصور الوسطى فى الجزيرة العربية أو فى شمال إفريقيا. وبدو العصور الوسطى ليسوا ببدو الفترة الحديثة.

وفى تونس، شـــهدت الأوضاع السياســـية منعرجا كبيرا منذ انتصاب حكم الأتراك فى المنطقة فى نهاية القرن ١٦ وخاصة منذ قيام الدولة الحســـينية فى مســـتهل القرن ١٨ ذلك ما أثر فى المعطيات الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التونسية التى بدورها غيرت نمط عيش السكان عموما. فمنذ أواسط القرن ١٨ أصبح البون شاسعا بين شريط ساحلى تونسى تطورت بـــه ظاهرة التمدن وانتشـــرت ظاهرة الأرياف حول المدن والقـــرى وبين داخل البلاد حيث

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، ديوان المبتدأ و الخبر... المصدر نفسه، جـ ٦، ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٣) «تتضمن مظاهر أنماط العيش القبلى صور التفاعل مع المجال وتختزن الثقافات مدى تقدم استغلاله رعيا وزراعة مما يسمح بالقول بأنه ليس مجرد فضاء مادى بقدر ما هو أحد عناصر تشكل الهوية» الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث (ق ١٦ – ق ١٩)، من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز: السباسب الوسطى مثالا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، صفاقس ٢٠٠٥م، ص ٥٨.

أبقت البداوة على جملة من خصوصياتها السوسيوثقافية. كما أدت التقلبات السياسية والتطورات الاقتصادية إلى تثبيت عناصر مادية وثقافية جديدة لسكان الأرياف مما أدى إلى تشكل تنظيم قبلى مميز للبلاد التونسية، تزامن مع بروز مفهوم «الهوية التونسية باعتماد مصطلحى الوطن والبلاد فى تعبير الفرق والعروش»[1].

وخلال القرن ١٩، أصبحت الأرياف تضم كل الذين يعيشون مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من استغلال الأرض. وبرز معها مصطلح الريفى (rural) وهو ذلك الفلاح (agriculteur) الذى يقتات من الفلح وهو فى آن واحد البدوى الراعى (pastoral)[2]. نوعان من الريفيين مختلفان ويتمحور الاختلاف حول نمطى عيش انتشرا بكامل البلاد: «الاستقرار» للفلاحين و«الترحال» للرعاة. أما «التنظيم القبلى» فهو السائد فى المجال الريفى بكل ما يحمله من خصوصيات اجتماعية وثقافية ثابتة للقبيلة التونسية. خصوصيات توارثتها الأجيال وتفاعلت فى تحديدها حضارتان تنتميان إلى الإطار الجغرافى «الصحراوى» والاجتماعى «القبلى» نفسه ونعنى من ذلك الحضارة العربية والحضارة البربرية.

ذلك ما يمكن أن نستشفه من مجمل آثار الرحالة الأوربيين. فهؤلاء الأجانب فى أبحاثهم عن الحضارة العربية الإسلامية وعن دقائق طباع السكان بدوا كانوا أو حضرا لم يولوا التعاريف المحلية والمصطلحات السائدة اهتماما بقدر اهتمامهم بالواقع الاجتماعى والحضارى الملموس «للبدو» بقطع النظر عن الجذور العربية أو البربرية للقبائل التونسية والبدو التونسيين بصفة عامة. لذلك كانت آثارهم بمثابة فسيفساء من الوصف لدقائق خصائص الحياة اليومية وعادات وتقاليد «البدو» بكل أصنافهم.

بين التوحش والتحضر:

ثنائية طغت على مصادرنا الغربية على امتداد الفترة الحديثة إذ تراوحت مواقف الأوربيين من «البدو» بين مادح وقادح، وإن غلبت عليها، فى نهاية الأمر، تلك الصورة

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(2) Chrif (M.H), «Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX è siècle», in Revue de l'Occident musulman et la Méditerranée, n° 30, 2ème sem. 1980.

القاتمـــة للبدو التى رسمها كل الذين زاروا البلاد التونســية. ففــى حين يتراءى البدوى للرحالة الأوربيين فى صورة تقترب أكثر إلى الوحشــية منها إلى الإنســانية، فهو فى آن واحد يعيش على فطرته ويختزن ما توارثته الأجيال من قيم أخلاقية يمتاز بها عن بقية سكان المدن.

إن هذه الصور لا تعدو أن تكون امتدادا للمواقف الســلبية التى حملها الأوربيون فى حقائب رحلاتهم عن البدوى والبادية. وهى عبارة عن أحكام مســبقة انتقوها من مدونة غربية نسجها فى بعض الأحيان المخيال الأوربى عن سكان شمال إفريقيا بل عن العرب والشــرقيين عموما. هى صورة توارثتها الأجيال على امتداد قرون من الصراع الإســلامى المســيحى على سواحل المتوســط شــحذتها الاختلافات الحضارية التى لامسها الرحالة الأوربيــون علــى أرض الواقع. فمجمل العادات والطباع والعلاقات الإنســانية واختلاف المظهر الخارجى للبدو، مقارنة بما تعود عليه هؤلاء فى الشــكل ولون البشــرة واللباس، باتت لديهم مدعاة إثارة وموضوع دراســات دقيقــة كان للنظرة الأوربية «المركزية»[1] دور فى بلورتها.

وفى هذا الســياق، اعتبر Laugier De Tassy [2] فى مقدمة كتابه «تاريخ أقطار شمال إفريقيا» أن الأوربيين الذين عاصروه لا يفرقون بين سكان شمال إفريقيا[3] والأوغاد. ويلقبون ســكان هذه المناطق بكل بســاطة بالحيوانــات، معتبرين أنهم يفتقــرون إلى ملكة التفكير وعاجــزون عن صنيع أى شــىء مفيد بل ربما كانت الحيوانات أفضــل منهم... «إن ذكر اســم الأتــراك أو المحمديين[4] أو العرب أو المور يوحى لهــؤلاء مثل هذه الأفكار، إلا إننى مقتنع كل الاقتناع أن هؤلاء الأشخاص، ودون سابق علم، بإمكانهم أن يتعاملوا مع مسلمين

(١) ما عبرت عنه الدراسات التاريخية بـ européocentrisme. انظر:

Bachrouch (T), «Les Barbaresques de Tunis au XVIIè siècle mythes et interprétations», in R.H.M, n° 31 – 32.

(٢) زار تونس سـنة ١٧٢٥م. وقد حاول هذا الرحالة الفرنسـى أن ينصف سكان شمال إفريقيا تجاه ما روجته كتب المبشرين المسيحيين خلال القرن ١٧ من صورة قاتمة لسكان هذه المنطقة.

(٣) إلى حدود القرن ١٨ اسـتعمل الأوربيون فى كتاباتهم عبارة Barbarie للدلالة على شمال القارة الإفريقية وBarbaresques للدلالة على سكان شمال إفريقيا. ولهذه العبارات جذور يونانية ورومانية.

(٤) هى عبارة كثيرا ما استعملها الأوربيون فى كتاباتهم إلى حدود القرن ١٩، للحديث عن المسلمين.

عاريى الرأس بدون عمامة[1] أو «الشال» الذى يضعه البدوى فوق رأسه، وبلباس مسيحى، ويجدون فيهم ما يمكن أن يجدوه لدى أى مجتمع آخر... سوف أقدم فى كتابى ما يساعد هؤلاء على إسقاط مثل هذه الأحكام المسبقة وأبين لهم أنه من بين مجتمعاتهم هنالك من هو أقل تحضرا من الذين نحن بصدد الحديث عنهم...»[2].

وكتب الرحالة الفرنسى Chabrol فى الفترة نفسها: «غريب كم نحن فى أوربا غير عادلين تجاه العرب إذ نعتبرهم متوحشين وشرسين. لقد عاشرناهم لمدة طويلة ونحن لشاهدون على مودتهم وفطرتهم التواقة للخير وخصالهم الطبيعية...»[3].

لهذه النظرة الدونية للبدو علاقة مباشرة بالفترة الزمنية التى زار فيها الرحالة الأوربيون البلاد التونسية، إذ إن الفرق واضح بين الأوائل الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا خلال القرنين ١٥ و١٦ فى ظروف صعبة، إما بمثابة أسرى القراصنة أو تابعين للكنيسة الكاثوليكية مكلفين بتحرير العبيد، والعدد الكبير من الرحالة الذين زاروا البلاد التونسية خلال القرن ١٩ بمحض إرادتهم أو فى إطار بعثات علمية.

لم تكن الرحلات الاستطلاعية والعلمية دارجة فى بداية الفترة الحديثة وجل الأوربيين الذين تركوا لنا آثارا مكتوبة كانوا من بين ضحايا القرصنة وقد أجبروا على العيش لمدة معينة (بلغت فى بعض الأحيان عدة سنين) فى السجون المخصصة للعبيد أو فى قصور المسئولين السياسيين، أو كانوا من بين رجال الكنيسة الذين قدموا لتخليص «العبيد البيض» ودفع فدية لتحريرهم. لذلك، لعبت حركة القرصنة داخل حوض البحر الأبيض المتوسط دورا مهما فى احتداد العلاقات بين الدول الأوربية والإيالتين العثمانيتين تونس والجزائر وفى تشويه صورة سكان شمال إفريقيا لدى الأوربيين قاطبة. إضافة للمرجعية الدينية السائدة آن آنذاك والتى تعتبر العرب والمسلمين قاطبة أعداء الكنيسة والمسيحية. فعلقت فى أذهان الأوربيين أبشع صورة للقرصان المسلم الذى يشهر سيفه فى وجه المسيحيين، يقطع

(١) وتعنى عبارة turban التى استعملها، «الشاشية» الحمراء التى يضعها التونسيون على رؤوسهم.

(2) Laugier De Tassy, Histoire des Etats barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine, les révolutions et l'état présent des royaumes d'Alger, de Tunis de Tripoli et du Maroc... Amsterdam, 1725.

(3) In, Sarga (M), «L'image des Bédouins dans la description de l'Egypte». http: //ema. revues.org/ index 638. html.

طرقهم البحرية فيسطو على تجارتهم ويؤسر رجالهم ويسبى نساءهم. لذلك امتزجت صورتا «القرصان» و«المسلم» فى الحديث عن كل الذين ينتمون إلى شمال إفريقيا وكل المسلمين أينما حلوا[1].

أما خلال القرن ١٨ فقد لعبت فلسفة التنوير دورا كبيرا فى توجيه نظرة الأوربيين للبدو بصفة خاصة؛ إذ أصبح الرحالة الأوربيون يبحثون من بين هذه المجموعات المنتشرة فى ربوع البلاد عن «إنسان الطبيعة» الذى ينعم بالحرية الطبيعية، مثلما روج ذلك فلاسفة الأنوار دعاة الحرية وعلى رأسهم Jean Jacques Rousseau. ذلك ما رسمه الأب Poiret [2] فى رحلته إلى الشمال التونسى حيث كتب فى إحدى رسائله «لقد تجاهلت الصورة التى سبق أن رسموها لى عن «العرب» وعن عاداتهم ووحشيتهم وحاولت إقناع نفسى بأن الإنسان كلما اقترب من الطبيعة كان عليه أن يزداد طيبة. وهنا، لم أعد أشاهد فيهم إلا أولئك الجدود الأولين المنهمكين فى رعى قطعانهم لا تثنيهم عن ذلك الحاجة إلى الترف والطمع...»[3].

وبحلول القرن ١٩، أصبح الرحالة أكثر واقعية ولم يتعاملوا مع «سكان الخيام» و«سكان الدواوير»[4] من منطلق أفكار مسبقة بل اعتمادا على ما شد انتباههم على أرض الواقع من نمط عيش ميز هذه الشريحة من المجتمع التونسى عن سكان المدن. كما اهتموا خاصة بالصراع شبه المتواصل بين السلطة والقبائل المستعصية. فبدت آثار رحالة القرن ١٩ أكثر إثارة وطرافة من غيرها؛ إذ قدمت لنا وصفا دقيقا عن حياة البدو أينما سكنوا وأينما حلوا.

إلا أن صورة الوحشية للبدو تبقى سائدة لدى جل الرحالة على امتداد العصور واعتبر جلهم أن التوحش والهمجية متأصلة فيهم إذ إنهم جبلوا على الشر ومعاداة كل أشكال التحضر. وقد حاول كل واحد من موقعه أن يعلل هذا التصرف وهذه الوحشية.

---

(١) كتب الأب Dan سنة ١٦٣٧م، وهو أحد أشهر مفتدى (Rédempteurs) رجال الكنيسة الكاثوليكية، أن «الأتراك والعرب والمور وشعوب أخرى محمدية سُحِروا بعقيدة مقيتة شجعتهم على استباحة المسيحيين بطرق شتى».
Dan (Pierre), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, des Royaumes et des villes, d'Alger, de Tunis, Salé et Tripoli, Pierre Rocolet, Paris, 1637, p. 27.

(٢) من أشهر فلاسفة عصره. وهو من رواد فلسفة روسو.

(3) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op.cit., p. 229.

(٤) الدواوير هى تجمعات سكنية صغيرة لبعض القبائل المستقرة التى بنت منازلها من الطوب والقش أو من الخيام.

يعود ذلك بالنسبة للبعض للإطار الطبيعى الذى يعيش فيه البدو والمتمثل فى الأراضى القاحلة الموحشة. فالصحارى التى يعيشون فيها أو حتى الغابات الجبلية هى مناطق فارغة طبيعيا أو لا تمت للحضارة بأية صلة وبالتالى هى خارجة عن أى إطار إنسانى وتاريخى «anti – historique» وتنسب إلى الحيوانية.

وفى هذا الصدد، صور Poiret البعض من سكان الجبال الحدودية بين الجزائر وتونس. فذكر أن «هؤلاء المساكين ينسحبون إلى العيش داخل غابات لا يمكن اقتحامها ويسكنون فى مغارات على سفح منحدرات جبلية رهيبة ويعيشون فى انعزال تام بعيدا عن المناطق الحضرية ويقتاتون من الثمار الطبيعية وعروق الأشجار الرطبة وبعض الحيوانات. إنهم أكثر العرب شراسة ولا أشك أن يكون بعضهم من آكلى لحوم البشر (anthropophage) نظرا لشدة جوعهم وشرههم للدم الإنسانى...»[1].

أما Shaw فقد اعتبر أن «حياة الترحال ومعاملة الأتراك الجائرة لهؤلاء البدو منعتهم من التحضر والتعلم»[2]. وبصفة عامة ركز جل الرحالة الذين زاروا تونس خلال القرنين ١٨ و١٩ على جور السلطة تجاه القبائل داخل وجنوب البلاد مما دعاها إلى التصرف بكل وحشية ومهاجمة ممثلى السلطة. وبذلك يتمثل البدوى لهؤلاء الأجانب بطبعه الحاد وعداوته المتأصلة للتحضر. إضافة إلى الصورة التى ما فتئت السلطة تروجها عن هؤلاء «الهمج» وحالة التعالى للحضر على سكان البوادى والأرياف[3].

هل تختلف هذه الصورة القاتمة عما ذكره ابن خلدون نفسه عن البدو بصفة عامة؟! كتب صاحب المقدمة فى الفصل الثانى من الكتاب الأول حول «العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال»: «واضطروا إلى إبعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا فى القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وتنزلوا من أهل الحضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات وهؤلاء هم العربِ وفى معناهم ضواعن البربر وزناتة بالمغرب...»[4]. وفى ذكره للزحف الهلالى، يؤكد ابن خلدون على «اضطراب أمر إفريقية وخراب عمرانها وفساد

(1) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op.cit, p. 228.

(2) Shaw (T), Voyages..., op. cit., p. 338.

(٣) الباهى (مبروك)، القبيلة... المرجع نفسه، ص ٦١.

(٤) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... ص ١٥٢.

سابلتها» لما عطفت جحافل القبائل العربية «على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركتها قاعا صفصافا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير...»[1].

كما أنه اعتبر البدو أكثر الخلق عداوة للتمدن فى فصل خصصه فيقول: «إن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب». وسبب ذلك «أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خُلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن رِبقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له...»[2].

فى حين أن ابن خلدون حاول أن يعلل «طبيعة التوحش» التى «جُبل» عليها البدو بأن اعتبر «نكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن» حملهم «على التوحش فى القفر»[3]، فإن جل المخبرين التونسيين للفترة الحديثة أوغلوا فى معاداتهم للبدو وصوروهم فى أبشع صورة دون تقديم أى تعليل لموقفهم من هذه الشريحة من المجتمع[4]. فابن أبى دينار ما فتئ يتحدث عن «زريعة الخبث والأصل اللئيم أولاد سعيد[5] لا أسعدهم الله لأن طبعهم هو الفساد فى البلاد ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحب الفساد...»[6]. وابن أبى الضياف يطالعنا فى كتاب الإتحاف بسجل من المصطلحات تتضمن عشرات العبارات التى تؤسس خطاب انتقاص لبدو الإيالة التونسية خلال القرن التاسع عشر، على غرار «العربان» و«أجلاف البوادى» و«نواجع العربان» و«عربان البوادى» و«أوغاد الجبل»... وهذا الموقف من البدو و«العربان» يمثل، دون شك، الموقف الرسمى للسلطة ونتاج تعالى سكان الحضر الذين يعتبرون هذه الشريحة من المجتمع التونسى تعيق أى شكل من أشكال «التمدن» مثلما روجت لذلك النظرية الخلدونية. كما أنها غالبا ما أشهرت سيف العصيان فى وجه السلطة المركزية وممثليها داخل البلاد، لذلك بدت معادية لأى شكل من أشكال التنظيم السياسى وموغلة فى الهمجية.

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر... المصدر نفسه، جـ ٦، ص ١٧.

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة.... «فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر» ص ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يعتبر مبروك الباهى أن «مدونة العصر الحديث (مقارنة بسالفتها الوسيطة) ليس لها مسوغ غير الخلفية السياسية الموروثة لاسيما أن اكتساح العالم البدوى بداخل الإيالة كان من أبرز ما عزمت على إنجازه السلطة التركية منذ العهد المرادى»، الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس... المرجع نفسه، ص ٦١.

(٥) وفى موضع آخر ينعتهم «بأولاد تعيس الذين لم يكن لهم رئيس إلا إبليس...» المؤنس... المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

البداوة التونسية قبيل الاستعمار الفرنسى:

تبدو دراسة البداوة فى تونس خلال القرن ١٩ على غاية من التعقيد لتداخل الرواسب التاريخية للبدو وتطور ظاهرة البداوة نفسها على امتداد العصور والواقع السياسى للبلاد الذى حددته آنذاك علاقة السلطة المركزية بالمجموعات البدوية المنتشرة فى أرجاء الإيالة. على أن الدراسات التى تناولت موضوع البداوة فى تونس الحديثة قدمت بحوثا تنم عن جهود كبيرة لتحديد الخصائص الاجتماعية للقبائل البدوية التونسية خلال تلك الفترة. ولعل أبرز هذه الدراسات أطروحة Lucette Valensi [١] التى أقدمت على عمل ضخم التجأت خلاله إلى «تقارير لجان شئون الأهالى المحليين» الاستعمارية المتعلقة بقبائل الوسط التونسى وبالتحديد قبائل جلاص والهمامة، ووظفتها فى نظرة عامة وشاملة لكل القبائل التونسية معتمدة على نمط فرضى من العلاقات الاجتماعية القارة قوامه النظرية «الانقسامية» القائمة على مبدأ «القرابة الدموية» و«الجهاز الجنيالوجى» فى تحديد أسباب «التحام وانشطار القبيلة التونسية».

أما دراسة مبروك الباهى حول «القبيلة فى تونس فى العهد الحديث» فقد جاءت أكثر ديناميكية؛ إذ تتبعت بكل دقة ظاهرة تطور البداوة بتونس من الاعتماد على الجمل الذى مثل تاريخيا الوسيلة الرئيسية لترحال البدو عبر المناطق الصحراوية، إلى تربية قطعان الخرفان، مما شكل مرحلة استقرار البدو معتمدين فى ذلك على نمط جديد فى «الحوز» وملكية الأرض[٢].

هذا إضافة إلى عدد كبير من الدراسات والمقالات التى خاضت بدورها فى «التاريخ الاجتماعى القبلى» خلال الفترة الحديثة وشكلت فى مجملها قوام المدرسة التونسية فى كتابة تاريخ هذه المجموعات البشرية[٣].

لا نروم فى بحثنا هذا الخوض فى هذه الأطروحات النظرية بل سنقتصر على عرض للمشهد الذى صوره الرحالة الأوربيين لانتشار القبائل التونسية خلال القرن ١٩ وذلك

---

(1) Valensi (L), Fellahs tunisiens, l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIII è et XIX è S. Mouton – Paris 1977.

(٢) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس... المرجع نفسه.

(٣) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس... المرجع نفسه، ص ٣٩.

فـــى مجال جغرافى حددته المعطيات السياســية الجديدة التى تولدت عن انتصاب حكم الأتــراك بتونس منذ نهايــة القرن ١٦، وتدرج نحو بناء فضاء اجتماعى ثقافى تشــكلت فى صلبه القبيلة التونسية. ونصبو من ذلك إلى تتبع ديناميكية تطور البداوة ونمط العيش القبلى فى تونس الحديثة داخل إطار جغرافى وسياســى محدد، اعتمادا على شــهادات مجموعة من الغربيين.

ثنائية المجال الجغرافى والمجال السياسى:

منــذ انتصــاب حكم الأتــراك بتونس فى نهايــة القرن ١٦، ارتبط المجــال الجغرافى التونســى، وبالتالى الفضاء الــذى تتحرك داخله المجموعات القبليــة والبدو بصفة عامة، بالمجال السياســى وذلك لأمريــن: لاختلاف نظام الحكم بتونــس وبالجزائر من ناحية، والنظام الجبائى الذى فرضته السلطة على سكان البلاد. فالمجال الجغرافى مثل فضاء ماديا حدد نمط إنتاج القبائل التونســية وعلاقاتها الاجتماعية. أما المجال السياســى فقد تشكل على بناء العلاقات الجديدة للإيالة التونســية مــع جيرانها، الجزائر وطرابلس، وتحديدا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠م، مما أجبرها على ضبط الحدود بينها وبين جيرانها. وحددت سياســة العائلة الحســينية الجبائية المجحفة التى فرضتها على المجتمع البدوى من ناحيتها مجال تحركه بين مختلف مناطق البلاد.

ومن خلال قرائتنا لآثار الرحالة الأوربيين، لاحظنا أن جل الذين زاروا الإيالة التونسية منذ القرن ١٨ انطلقوا فى وصفهم للبلاد من ترابط هذين المجالين وقد مثلا حدودا تشكلت وتفاعلت وتطورت داخلهما كل القبائل التونسية منذ سقوط دولة الحفصيين وانتصاب حكم الأتراك وتحديدا منذ قيام الدولة الحسينية سنة ١٧٠٥م.

(أ) من البادية إلى الريف:

عندمــا زار Marmol شمــال القارة الإفريقية فى بداية القــرن ١٦ كان النفوذ الحفصى يمتد من تخوم «موريتانيا القيصرية»[1] غربا وقســنطينة من الشــمال الغربى إلى حدود مصر شرقا وسواحل البحر الأبيض المتوسط. أما جنوبا فالتراب التونسى كان يتوغل فى الصحراء

(١) حــدود هــذه المنطقة غير واضحة وقد ورث الرحالة الأوربيون هذه التســمية عــن المؤرخين الرومان للدلالة على المناطق الوسطى لشمال القارة الإفريقية، ما يقال حاليا الجزائر.

الكـبرى إلى حـدود منطقة الزاب وجبال الأطلس الصحراوى. وقد قسـمها هذا الرحالة إلى مقاطعـات أربع : قسـنطينة وتونس وطرابلس والزاب[1]. إلا إنـه اكتفى بوصف أكبر المدن السـاحلية وأهمل المناطق الداخلية «للمملكة التونسـية» التى اعتبرها «مناطق شاسعة شبه قاحلة تتنقل فيها مجموعات كبيرة من أشد العرب والأفارقة، عجز ملوك وسادة هذه البلاد على ترويضهم وضمهم إلى صفوفهم وإرضائهم...»[2].

اقتصرت آثار الرحالة الأوربيين فى بداية الفترة الحديثة إذن على وصف شامل لكامل تراب البلاد التونسـية وتتبع المسـالك التجارية الصحراوية أو الساحلية الرابطة بين المدن التونسـية ومختلف مناطق البحر الأبيض المتوسـط أو الداخلية الرابطة بين المشرق والمغرب والمارة عبر أكبر المدن. وأكدت كتب الرحالة من ناحية ثانية على الفراغ العمرانى للمناطق الداخلية نظرا لفقر مناطق السباسب وسفوح الجبال التى مثلت مجالا مفتوحا للبدو الرحل المتنقلين حسـب الفصول من الجنوب نحو الشـمال ومن الغرب نحو الشـرق ذهابا وإيابا. ولعل أبرز ما يلفت الانتباه هو المشـهد الجغرافى الموحش لهذه المناطق القاحلة التى تضمن عيش «مجموعات متوحشة من البدو الرحل تتنقل فى شكل جماعات صغيرة أو قبائل كبيرة تتنقل مع بعضها بين أرجاء البلاد...». ويحاول Marmol أن يعلل وجود هذه المساحات الهائلة من الأراضى القاحلة فى مناطق كانت قديما آهلة بالسكان. فاعتبر أن «العرب خربوا معظـم المدن الرومانية القديمة عندما قدموا إلى إفريقية دون أن يهتموا بإعادة تعميرها حتى يتمكنوا من التنقل بحرية بقطعانهم ويغنموا بكل راحة من خيرات الأرياف. وبذلك اندثرت هذه المدن نهائيا وبقيت بعض الآثار لتروى ذاكرة تلك الحضارات الغابرة...»[3].

من خلال هذا المشهد تتراءى لنا «البادية التونسية» بعنصريها الجغرافى والبشرى فى علاقة وطيدة بين الإنسـان والإطار الطبيعى. فقد فـرض البدو الترحال كنمط عيش معاد «للعمران» على امتداد مراحل تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة. وإن تمكن الرومان من صد القبائل البدوية البربرية وإجبارها على الاستقرار داخل المدن التى شيدوها أو التراجع إلى

(1) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 430.

(2) Ibid., p. 432.

(3) Ibid., p. 444.

تخوم الصحارى، فإن الهجرات المتتالية للقبائل العربية لشـمال القارة الإفريقية فرضت نمط العيش البدوى الشـرقى الـذى جلبته معها من فيافى الجزيرة العربية ونشـرته فى كامـل المنطقة وتحديدا فى ربوع إفريقية وتأقلمت فـى إطار جغرافى كان من قبل موطن البدو البربر.

ولعل التفسير الذى قدمه Marmol وغيره من الرحالة الأوربيين والمتعلق بالفراغ العمرانى والحضارى لمسـاحات شاسعة من البلاد التونسية يوافق النظرية الخلدونية فى «أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب». وقد أطال صاحب المقدمة شرحا لأسباب ذلك، إذ إن البدو العرب، حسب رأيه «أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار خلقا وجبلة... وهذه الطبيعة منافية للعمران وناقضة له فغاية الأحوال العادية كلّها الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافى القدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشـب أيضا إنما حاجتهـم إليه ليعمدوا بـه خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران...»[1].

وهـى الصورة نفسـها التى يقدمها لنـا ابن أبى دينار عن طبيعـة «الأعراب» فى عهد الدولة الحفصية إذ يذكر أنهم «كانوا فى أول الأمر أشـد شوكة واستحوذوا على جل البلاد فكان يعسـر الخلاص معهم... وأهل الجبال غالبهم عصاة، وكان صاحب المحلة يعاملهم بالمخادعة والرفق والقواد يتعقبونهم...»[2].

يبدو إذن أن بداوة القرون الوسـطى وبداية الفترة الحديثة القائمة على نمط عيش قوامه التنقل وعدم الاسـتقرار، ارتبطت مباشرة بمجال جغرافى شاسع سمح للمجموعات البدوية فـرض الترحال والتنقل بـكل حرية من أقاصى البلاد إلى أدانيهـا دون قيود وضوابط. بل شكلت خطرا على «العمران» منذ أن أظهر البدو عصيانهم للسلطة السياسية المركزية المعادية للحريـة المفرطـة. إذ فُرض عليهم نمط العيـش البدوى «التقلب فـى الأرض وحتم عليهم الالتجـاء إلى القـوة للدفاع والهجـوم. كما أن الحاجة دعتهم دائما لحمل الأسـلحة: ففى المناطق القاحلة، تصبح بركة ماء أو مرعى مدعاة للحرب والتخريب...»[3].

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... ص ١٨٧.

(٢) ابن أبى دينار المؤنس...، ص ٢٢٨.

(3) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 51.

ومع بداية الفترة الحديثة، تغيرت الحدود الجغرافية للبلاد التونسية بتقلص مساحتها[1]. فقد أصبحت الإيالة تمتد من «الجبال الفاصلة بين الجزائر وتونس من الناحية الغربية الشمالية. أما جنوبا فتفصل بين البلدين سلسلة جبال الأطلس التى تتوغل فى الصحراء. وتحد سواحل البحر المتوسط وطرابلس الإيالة التونسية شرقا»[2].

انطلاقا من الوصف الذى قدمه Shaw للإيالة التونسية فى بداية القرن ١٨ قسم الرحالة الأوربيون البلاد إلى إقليمين اثنين: «الإقليم الصيفى والإقليم الشتوى»[3]، كما يشير لذلك Frank، الذى يؤكد على أن «الإيالة التونسية لم تعد تقسم إلى مقاطعات مثلما كان عليه الحال من قبل بل إلى إقليمين كبيرين: الإقليم الصيفى والإقليم الشتوى»[4]. ويقدم Shaw وصفا دقيقا لهذين الإقليمين يتبين من خلاله أن المجال الذى تنتشر فيه البداوة اتخذ شكلا مغايرا لما كان عليه فى الفترة الوسيطة بحكم تطور نمط عيش البدو. فالإقليم الصيفى الشمالى «يحتوى على عدد كبير من المدن والقرى والدوار. كما أنه يبدو على غاية من الخصوبة ورفاهة العيش. فلنقل إن كل شىء يبدو زاهيا والأرياف ضاحكة حول منطقة «فريفة»، أى البلاد الواقعة ما بين الكاف وباجة. إلا أن المساحات الداخلية للإقليم الصيفى هى أقل خصوبة وتصعب زراعتها لأن عديد الهضاب والسباخ تقطعها...»[5].

أما الإقليم الشتوى الجنوبى فهو أقل خصوبة وسكانا برغم كبر مساحته. «فمناطقه الساحلية فى معظمها جافة وترابية... ويتكون داخل البلاد فى غالبيته من هضاب وسباخ، ما عدا السهول الفيضية للأودية، بما فى ذلك منطقة القيروان، فهى منخفضة ومتعددة

---

(١) لم تكن للبلاد التونسية حدودا واضحة بل كانت أقرب منها إلى «الأطراف». ولم تضبط الحدود الجزائرية التونسية إلا إثر الاتفاق الذى أبرم بين الحكومتين سنة ١٦٢٨م، إلا أن القبائل الحدودية لم تحترم قط هذه الحدود. انظر:
Bachrouch (T), Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIe siécle, PUT, Tunis 1977, p. 162.

(2) Marcel (J. J), Tunis, description de cette Régence par Louis Frank, Paris 1850, P. 6.
تولى Louis Frank خطة الطبيب الخاص لحمود باشا باى ما بين ١٨٠٤م و١٨٠٨م. ثم ترك مذكرات تولى صديقه J. J Marcel نشرها.

(3) Shaw (T), Voyages..., op. cit., p. 175.

(4) Marcel (J.J), Tunis... op. cit., pp. 75.

(5) Shaw (T), Voyages..., op. cit., p. 175.

السباخ... أما خلف جبال القصرين، وصولا إلى منطقة فرنانة وجنوبا إلى تخوم الصحراء فنحن نقطع مئات الأميال من الأراضى الجدباء»[1].

ومع ذلك، تؤكد كتب الرحالة الذين عاصروا Shaw أن هذه المناطق، برغم قساوة طبيعتها فإنها آهلة بالسكان وتتجمع فوقها العديد من القرى والدواوير ويتعاطى سكانها شتى الأعمال الفلاحية والتجارية. «فالقبائل الكبرى تتنقل داخلها لزراعة الحبوب وبيع خرفانها ونتاج حليبها وصوفها أو الأغطية التى تصنعها نساؤها وتشترى ما هى فى حاجة إليه من الأوانى الفخارية. ثم تتوغل ثانية فى المناطق الصحراوية حيث تعيش على الصيد والحبوب التى اقتنتها وحليب نوقها.... والمناطق المتاخمة للصحراء ليست فارغة تماما مثلما يضن البعض، فهى تضم العديد من المدن والقرى المحصنة التى تسكنها مجموعات لا تحصى من العرب[2] الرحل[3]».

وآثر رحالة القرن ١٩ الاعتماد على هذا التقسيم الثنائى فى تقديمهم للبلاد التونسية وركزوا بالدرجة الأولى على التطور الذى شهدته المناطق الداخلية التى تبدو من خلال وصفهم آهلة بالسكان وتعتمد حركيتها الاقتصادية بالدرجة الأولى على النشاط الفلاحى، غراسة وتشجيرا وتربية للماشية. إضافة إلى تزويد المدن الكبرى بحاجياتها من المواد الغذائية وبعض المواد الأولية على غرار منطقة الوسط التونسى المجاورة للقيروان التى تزهو خلال السنوات الممطرة فتجلب مناطق الرعى الخضراء القطعان العديدة التى تقودها القبائل العربية... مما يخلق حيوية غير معتادة على أبواب مدينة القيروان. فالبدو يمولونها بما تحتاجه من مواد غذائية وهى بدورها تمدهم بما هم فى حاجة إليه من الصناعات اليدوية[4]. أو المناطق المجاورة لمدينة الكاف الحدودية حيث تقام الأسواق الأسبوعية على غرار السوق التى تنظم كل يوم سبت قرب قرية «زوارين» إذ يجتمع عدد لا يحصى من العرب قدموا من مشارف القرية أو من مناطق نائية لبيع الخيول والماشية. كما يعرض الباعة الصوف والقمح والشعير وكل منتجات المنطقة. وتعرض نساء قرية زوارين

(1) Ibid., p. 236.

(٢) ويعنى بالعبارة «الأعراب.

(3) Cuop (J), Venture De Paradis, Tunis et Alger... op. cit., p. 51.

(4) Guérin (V), Voyage archéologique.. t. 2, op. cit, p. 326.

ما تنتجــه من أوان فخارية»[1]. كما يتحدث Filippi من ناحية أخرى عن ثراء وخصوبة «الريف التونســى» الذى ينتج مختلف أنواع الخضر والغلال إضافة إلى الزراعات الشاسعة والغراسات البعلية والسقوية[2].

مــن خلال ما عرضته آثــار الرحالة الأوربيين نلاحظ إذن حواضر الشــريط الســاحلى التونسى والمدن الكبرى الداخلية خلقت على امتداد الفترة الحديثة أريافا أصبحت تتعامل معها فى دورة اقتصادية يتعاضد فيها المركز بالمحيط. وإن أبقت القبائل المتنقلة من مناطق نائية على نمط عيشــها البدوى وعاداتها وأعرافهــا البدوية فهى لجأت فى نهاية المطاف إلى الاستقرار فى مكان واحد حيث «أقامت خيامها وبحثت عن موارد عيش حرمتها منها المناطــق الجنوبية»[3]. ويعود ذلك إلى التحول الذى شــهدته هــذه المناطق، نظرا لارتباطها المباشــر بنمــط العيش البدوى/ القبلــى الذى اعتمد منذ بداية العصــر الحديث على ملكية الأرض وبالتالى إلى استقرار قبائل الشمال والوسط التونسى. ذلك ما وافق التحولات السياسية التــى طبعت الفــترة الحديثة بظهور مصطلحــى الوطن والبلاد فى تعبــير الفرق والعروش وتشكل الهوية التونسية...[4].

(ب) البدو والسلطة خلال القرن ١٩:

انطلاقا من القرن ١٧ تغيرت المعطيات السياســية للبلاد التونســية وأظهرت كل الأنظمة التــى تتالــت على الحكم رغبــة ملحة فى إخضــاع القبائل البدوية لمشــيئتها وضبط مجال تحركهــا. فروجت قاعدة «التخريب» التى «جبل عليها الأعراب» منذ الزحف الهلالى. وهى قاعدة اعتمد عليها أصحاب السلطة لتذنيب الأعراب على «تخريب المناطق الآهلة بالسكان» وذلك لغايتين: لتســويغ سياسة الترهيب المتبعة ضدهم من جهة ولفرض الاستقرار والسيطرة عليهم وإجبارهم على دفع الجباية التى تمثل أحسن تعبير لتبعيتهم للسلطة فى تونس، من

(1) Monchiciurt (C), Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834), Paris 1929, p. 204.

شغل الرحالة Filippi منصب قنصل مملكة سردينيا بتونس من ١٨٢٥م إلى ١٨٣٠م.

(2) Ibid.

(3) Guérin (V), Voyage archéologique.. t. 1, op. cit, p. 423.

(٤) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ٥٨.

جهة ثانية[1]. فقارئ المؤنس لابن أبى دينار يخال له أن هم البايات المراديين الوحيد هو تتبع القبائل المستعصية من شمال البلاد إلى جنوبها و«كسر شوكتها» وخاصة تلك التى اتخذت الجبال الحدودية الفاصلة بين الجزائر وتونس حصنا مانعا لها أو تلك التى كانت تعتمد سياسة الكر والفر وتتوغل فى القفار تحاشيا لمواجهة القوات النظامية. وقد ركز كل الرحالة الأوربيين على هذه العلاقة العدائية بين السلطة والقبائل البدوية منذ أن سجل Marmol فى بداية الفترة الحديثة «مقاومة القبائل البربرية الجبلية فى منطقة قسنطينة والحدود الجزائرية التونسية للأتراك»[2] إلى عشية الاحتلال الفرنسى عندما ذكر طبيب المحلة الألمانى Gustav Nachtigal أن «البدو الرحل ذوى الخيام من الوبر لا يضمرون خيرا للحكومة...»[3].

ولم تكن الجباية – فى حقيقة الأمر – هى الداعى الأوحد لوقوف البدو أمام السلطة المركزية. فهم جبلوا على «الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة» مثلما أشار لذلك ابن خلدون[4]. ولعل التعليل الذى قدمه بعض شيوخ «القبائل الجبالية» لـ Pellissier عندما سألهم عن سبب «حملهم السلاح فى وجه الحكومة» والحال أن قيمة الجباية المطلوبة ضئيلة هو أحسن دليل على طبيعة البدو الثائرة. فقد عللوا عصيانهم بأنهم إذا دفعوا الضريبة سنة واحدة دون معارضة «قد يعمد الباى لمضاعفتها بالسنة المقبلة. كما أنه من العار أن يدفع جبالى الضريبة حال ما يتلقى الأمر». ويضيف نائب القنصل الفرنسى بأن «تعنت بدو منطقة جبال خمير هى طبيعة كل البدو أينما حلوا، ففلاحو الصعيد المصرى لا يذعنون

---

(١) منع الاتفاق المبرم بين الحكومتين الجزائرية والتونسية سنة ١٦٢٨م «أن يتتبع جباة الضرائب البدو الهاربين عبر الحدود. ويعود حق جمع الضرائب للدولة المستقبلة». ذلك ما سمح لبعض القبائل بأن تغتنم وضعيتها غير القارة بالمنطقة الحدودية بأن تنتقل بين الدولتين، هروبا من دفع الجباية Bachrouch (T), Formation social bar baresque... op. cit., p. 158.

(٢) أشار إلى ذلك Marmol فى حديثه عن القبائل المستقرة فى حوض واد مجردة فى الشمال التونسى التى فقدت جزءا كبيرا من تحضرها المعتاد نظرا لسياسة ملك تونس القمعية تجاهها... فوجدت غايتها فى الحياة نحو السرقة وقطع الطرق.

Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 69.

(٣) منير الفندرى، البلاد التونسية فيما بين ١٨٦٣م – ١٨٦٨م من خلال رسائل الطبيب الألمانى غوستاف نختغال Gustav Nachtigal، منشورات مركز النشر الجامعى، تونس ٢٠٠٣م، ص ١٣٨.

(٤) «... عوائد التوحش وأسبابه فيهم صار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذاذا لما فيه من خروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة...» المقدمة... ص ١٨٧.

لدفع الميرى إلا إذا تعرضوا للضرب المبرح بالعصى»[1]. إلا أن سياسة الترهيب التى اتخذتها مختلف الحكومات تجاه العناصر البدوية، منذ انتصاب حكم الأتراك بتونس، هى التى كانت غالبا تشحذ طبيعتهم التواقة للحرية وتدفعهم للوقوف فى وجه الحملات الموجهة نحوهم لإرضاخهم وكسر شوكتهم[2].

تمثلت بؤر العصيان خلال القرن ١٩ فى المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية والصحراوية نظرا لوعورتها فى وجه الجند وصعوبة اقتحامها. فمنذ بداية القرن ١٨ لاحظ Shaw أن «المجموعات القاطنة بالمناطق المتاخمة للصحراء والبدو الرحل بصفة عامة، أحرار يصعب إجبارهم على دفع الضرائب لأنهم دائمو الحذر وعلى أهبة الفرار أو الالتجاء إلى القفار كلما علموا بقدوم الحملة»[3]. وفى الفترة نفسها تحدث Peyssonnel عن سكان مناطق البلاد الشمالية. وحسب رأيه «ترضخ بعض هذه الشعوب لحكم الباى والبعض الآخر يعيش فى حرية. وتدفع المجموعات التى تسكن السهول الضرائب كما سكان المناطق التى يسهل على جيوش الأتراك اقتحامها. أما سكان الجبال المنحدرة التى يعسر بلوغها، فهم مستقلون عن البايات فى تونس أو فى الجزائر... ولا يدفعون أية ضريبة...»[4].

وعن القبائل الشمالية القاطنة بالمناطق الحدودية الجزائرية التونسية نفسها يذكر Pellissier فى بداية القرن ١٩ أن «وضعيتها غير مستقرة منذ أمد طويل. فهى تذعن تارة للإيالة التونسية وتارة أخرى للإيالة الجزائرية. وفى بعض الأحيان، لا تنضوى تحت أى حكم. ذلك ما حدا بالحكومة الاستعمارية بالجزائر منذ سنة ١٨٣٦م أن تدرس المسألة الحدودية. وانتهى الأمر بأن قامت السلطة الفرنسية برسم الحدود بين الجزائر و تونس، من طرف واحد، انطلاقا من منطقة القالة عبر الجبال الشمالية دون أن يبرم أى اتفاق بين البلدين...»[5].

لكن يبدو أن ظاهرة العصيان لم تفتر خلال القرن ١٩، بل آل الأمر إلى أشكال أرقى من تمرد البدو فى وجه سلطة البايات إذ أصبح الحديث عن انتفاضات عمت أرجاء الإيالة التونسية دون استثناء. ويعود ذلك بالدرجة الأولى لسياسة البايات الموغلة فى فرض

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis, Paris 1853, p. 43.

(2) Leon (l'africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 28.

(3) Shaw (T), Voyages..., op. cit., p. 4.

(4) Valensi (L), J. A Peyssonnel, voyage dans la regence de Tunis... op. cit,. p. 135.

(5) Pellissier (E), Description... op. cit, p. 44.

«المغارم»[1] على السكان وتحديدا القبائل الداخلية[2]. وقد أكد صاحب الإتحاف هذا الأمر العديد من المرات، أبرزها الفوضى التى عمت منطقة الأعراض بالجنوب الشرقى للبلاد التونسية سنة ١٨٤٠م. ففى تلك السنة «وقع شىء من بوارق العصيان، خاف الباى من سريانه فى المملكة لاتحاد السبب. و ذلك أن هذا الباى (المشير أحمد باى ١٨٣٨م – ١٨٥٥م) لما صرف عنايته إلى تكثير العسكر لزمه (اضطر) زيادة المصروف ضرورة، فرتب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها، تعرف بالمحصولات... رتبها وعممها فى المملكة وأسواق العربان والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم[3]... فاعتمد متولى لزمة الأعراض الإجحاف فيها حتى قيل إنه يطلب المحصول على دفن الميت فهجم عليه بعض العامة وقتلوه[4]... ولما بلغ الخبر الباى وتحقق عنده أن سائر عربان المملكة استحسنوا ذلك وتآمروا عليه، تلافى الصغير قبل أن يكبر والقليل قبل أن يكثر فنهض بنفسه إلى الأعراض يجر وراءه عرمرما من العسكر النظامى...»[5].

بقى الصراع إذن سجالا بين السلطة المركزية والقبائل البدوية طوال الفترة الحديثة واتخذ أشكالا مختلفة من حملات تأديبية تقوم بها الجيوش النظامية ضد القبائل المتمردة إلى حروب طويلة المدى يشنها البايات ضد انتفاضات شاملة جمعت فى ردهات من القرن

---

(١) يذكر ابن أبى الضياف أن بعض المسئولين فى أغلب مراتب الدولة يدعون دائما إلى إثقال كاهل «الأعراب» بالمغارم على أساس أن «العربان إذا كثر مالهم ساء حالهم، وفى ثقل الجباية خضد لشوكتهم وكبح لهم عن العصيان» ويضيف أن «بعض الأوغاد السفهاء من جهلة الترك» يتندرن بمثال تونسى «العربى خذ ماله واقطع رأسه» الإتحاف... جـ ٥، ص ١٢٩.

(٢) يتحدث محمد الهادى الشريف فى مقاله حول «حركات الفلاحين فى تونس خلال القرن التاسع عشر» عن «أزمة حادة تناقضت فيها مصالح آلة حكم متطورة ورواسب نظام اقتصادى بال».

Chrif (M. H) «Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX é S»... op. cit., p. 47.

(٣) لاحظ De Paradis منذ نهاية القرن ١٨ أن «الدولة تفرض الضرائب عن طريق لزمة يدفعها فايد المنطقة مسبقا ثم يتولى جمعها معتمدا كل طرق القمع والقوة. وتتغافل الحكومة عن جور عمالها ذلك ما يجعلهم غالبا فى موقع قوة...».

Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit. p. 54.

(٤) فى الفترة نفسها، وغير بعيد عن منطقة الأعراض، يذكر ممثل القنصلية الفرنسية Pellissier أن «أعراب المثاليث اشتهروا بطباعهم الغليظة فكثيرا ما يهاجمون جباة الضرائب ويهينونهم. وقد قتلوا مؤخرا أحدهم، لذلك أصبحت السلطة تهابهم وتتعامل معهم بلطف» Pellissier (E), Description... op. cit, p. 132.

(٥) ابن أبى الضياف، الإتحاف... المرجع نفسه، جـ ٤، ص ٤٤.

التاسع عشر العديد من القبائل المتضامنة ضد الحكم المركزى[1]. ونتيجة لهذا الصراع الدائم بين بدو يتوقون إلى الحرية والترحال الدؤوب دون قيود ونظام حكم قائم على مبدأ «الأمن الجماعى» والاعتراف بسيادة صاحب السلطة، مما يقتضى الاستقرار والانخراط فى صلب المجموعة، تمكن الأتراك، على امتداد السنين، من السيطرة على معظم المناطق الحضرية للبلاد التونسية قبل سكان هذه المناطق بدورهم الانصياع إلى حكم البايات وأعلنوا ولاءهم لأصحاب السيادة عن طواعية أو مكرهين على ذلك. كما تفاعلوا مع المعطيات التى يمليها عليهم الاستقرار من أعمال وطباع هادئة. فحسب شهادة بعض الرحالة الأوربيين، كانوا «يمتازون بنزاهتهم وإن كانت لهم مساوئ توازى محاسنهم كالتخاذل وقلة الحيوية[2]... فالجرائم قليلة فى الأوساط الحضرية بل هم غالبا ضحية مهاجمة جيرانهم...»[3]. أما العرب «ذوى الخيام، فهم جريئون ولهم حيوية فائقة... حياتهم قليلة الهدوء، ما عدا سكان المناطق المجاورة للقيروان، ولا يتحملون سياسة القمع التى تتوخاها السلطة تجاههم...»[4].

وأفضل دليل على استقرار أكبر نسبة من القبائل التونسية خلال القرن ١٩ هو تقلص الحملات التأديبية ضد العصيان البدوى[5] وقبول معظم القبائل مبدأ دفع الجباية بطرق سلمية كلما مرت بهم المحلة التى كانت تخرج من العاصمة تحت قيادة الباى الحاكم أو «باى الأمحال»[6] للقيام برحلتى الصيف والشتاء فى كل سنة. فتتوجه المحلة شمالا فى الصيف لاستخلاص الجباية على المحاصيل الزراعية وجنوبا فى فصل الشتاء لاستخلاص الجباية على إنتاج الزياتين والتمور.

---

(١) أشهر هذه الانتفاضات هى التى هزت الإيالة التونسية سنة ١٨٦٤م وعرفت بـ «انتفاضة ابن غذاهم». انظر الإتحاف... جـ ٥، ص ١٢٧.

(٢) ذكر ابن خلدون فى باب «العمران البشرى والأمم المتوحشة...» من المقدمة أن البدو «كلما نزلوا الأرياف وتفننوا النعيم وألفوا الخصب فى المعاش، نقص من شجاعتهم... فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما أتاهم الله من البساطة...» المقدمة... ص ١٧٥.

(3) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis... op. cit., p. 330.

شغل Pellissier منصب نائب القنصل الفرنسى بتونس ما بين ١٨٤٣ و١٨٤٨م.

(4) Ibidem.

(٥) فى ما عدا فترات الانتفاضات العامة التى كانت تشمل الحواضر والأرياف دون استثناء.

(٦) يتولى عادة ولى العهد الخروج على رأس المحلة وجمع الضرائب أو أحد أفراد عائلة الباى المقربين إليه.

وإن اختصرت المصادر المحلية الحديث عن المحلة فى ذكر خروج أشـهرها وما قامت به من ردع للقبائل لاسـتتباب الأمن، فإن آثار الرحالة الأوربيين تطالعنا بأطرف الحديث عـن الحمـلات التى تقوم بها المحلة لاسـتخلاص الجباية ولفرض السـيادة على القبائل المسـتعصية. فابن أبى الضياف لم يتعرض لخروج المحلة إلا المرار القليلة على غرار محلة «الخمسة بايات» التى قادها حمودة باشا على إثر توليه الحكم والتى اصطحبه فيها أخويه عثمان ومحمد المأمون وابنى عمه محمود وإسماعيل. ولم يذكر عن هذه المحلة إلا ما حققه حمودة باشـا من بطولات بأن «مهد الوطن وأمن السـبل وغل أيدى المعتدين وأرهب العمال واسـتوفى الجباية»[٧]. فى حين يقتفى Desfontaines [٨] أثر المحلة نفسها ويمدنا بدقيق التفاصيل عن الأحداث التى تخللت مدة رحلتها بمناطق الجنوب التونسى[٩].

ومن حسـن الحظّ كذلك، أنّ عددا آخر من الأوربيين تواجد خلال القرن التاسـع عشر إلى جانب بعض البايات عند خروجهم على رأس محلاتهم. وقد وافانا هؤلاء بوصف دقيق لخروج المحلة من العاصمة فى شـكل احتفالى إلى حين عودتها. ولنسـتمع لـ Flippi فى أطرف ما ذكر عن المحلة التى قادها حسـين باى (١٨٢٤م – ١٨٣٥م) بنفسه. فإضافة إلى الحديـث المطـول عن انطلاق المحلة من تونس العاصمة فى موكـب بهيج، يمدنا القنصل الإيطالى بتفاصيل أدق عن يوميات القافلة وهى تقطع الوسـط التونسـى تحديدا ببير (بئر) الحفى حيث توقفت للاستراحة: «...عندما كانت المحلة فى منطقة السونية شوهد هلال شـوال فأطلق الفرسان عيارات نارية إعلانا لعيد الفطر «البيرم» (٩ إبريل ١٨٢٩م)... وفى الغـد صباحا اسـتقبل الباى التهانى من قبل أعيان الفيادة. وأمـام الجميع أقيمت، مثلما يقـع فى قصر باردو، المصارعة اليونانية وصراع السـيوف[١٠]، كل ذلك تحت قرع الطبول والمزمار. وفى المسـاء، مر أمام الباى فرسـان قبيلة الهمامة وعددهم ٥٠٠ يتقدمهم الفايد. تقدم الفرسان فى صفين وعند وصولهم أمام مدخل الخيمة أطلق كل فارس عيارا فى الفضاء أو على الأرض ودام الاحتفال أكثر من نصف سـاعة. ثم تقدمت سـتة جمال مزركشة بنوع

(٧) ابن أبى الضياف، الإتحاف... المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٠.

(٨) قدم إلى تونس فى مهمة علمية. كما أنه شغل خطة طبيب الباى ما بين ١٧٨٣م و١٧٨٦م.

(9) Dureau de La Malle, Fragment d'un voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger fait de 1783 a 1786, t2, Paris 1838.

(١٠) وهو استعراض بقى إلى يومنا هذا يتماها خلاله فارسان بالصراع بالسيوف أو بالعصى ويسمى «الزقارة».

من الزرابى الحمراء على ظهورها نســاء مستورة تغنى أغانى وطنية على شرف الباى وبين الأغنيــة والأخرى تنطلق الزغاريد من حناجر الوصيفات... ثم تقدمت مجموعة أخرى من الفرسان يركبون أجمل الخيول التى ازدانت بزرابى من الحرير تغطى ظهورها وتترامى على مؤخرتها إلى حد سيقانها. ويتقدم الموكب الكربسون»[1].

ســاهمت القبائل المخزنية[2] بقدر وفير فى مســاندة وإنجاح الحملات التى كانت تقوم بها المحلة سنويا بين الشمال والجنوب. وقد لفت انتباه جل الرحالة منذ القرن ١٨ الدور الخطير الذى تقوم به هذه القبائل بتقديم مدد عســكرى للمحلة يتمثل فى أقدر فرســانها و«لوجستى» فى ضبط مواطن القبائل الأخرى مثلما لاحظ ذلك العالم النباتى Rebatel فى منتصف القرن ١٩ [3]. فالبلاد تنقسم حسب رأيه «إلى حزبين متعاديين: الباشية أو العرب الأحــرار وهــم البدو الحقيقيون والحيســنية أو الحزب الحكومى[4]. تمثــل قبيلة بنى زيد الكــبرى الحزب الأول وتمثل قبيلة الهمامة الحزب الثانى. وحول هاتين القبيلتين تنضوى باقى القبائل الأخرى حسب أفكارها وحسب مصالحها. وأهم القبائل التى تنتمى إلى صف بنى زيد، المثاليث قرب صفاقس والسواســى ما بين سوسة والقيروان وحازم ما بين سيدى مهــذب وفابس وماجر والفراشــيش ما بــين تونس والحدود الجزائريــة. أما حول الهمامة فتصطف قبائل جلاص قرب القيروان وورغمة قرب الحدود الطرابلسية والعكارة بجرجيس

(١) تســتعمل العبــارة للدلالة على أجمل الخيول العربية التى يمتطيهــا أحد أتباع الباى والتى تحلى بغطاء جميل للغاية. يســبق الكربســون جواد الباى ويعطى الإشارة للموسيقى العســكرية ويحمل الفارس الذى يمتطيه سنجقا أخضر «سنجق شريف» كما يسمى كذلك «سنجق المراحل».

(٢) تعود جذور المؤسسات المخزنية للعهد الحفصى ورثتها السلطة التركية. وتعتبر المخزنة «عقدا» معنويا يربط بين الســلطة وبين بعض القبائل يقتضى مبدأ المشــاركة النظرية فى تســيير العمل السياســى داخل البلاد ويفضى إلى مساندة هذه القبائل الموالية للســلطة عســكريا لإخضاع القبائل المعارضة مقابل امتيازات مادية تتمتع بها دون غيرها كعدم دفع الضرائب. انظر، الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٣) قدم إلى تونس فى شهر مارس ١٨٧٤م وقام برحلة عبر الوسط والجنوب التونسى.

(٤) تلخص العبارتان الصراع السياســى الدامى الذى جمع بين حســين بن على التركى مؤســس الدولة الحســينية وابن أخيه على باشــا. وانتهت الفتنة بمقتل حســين بن على على يد ابن أخيه «وانقسمت البلاد يومئذ إلى حسينية وهم القائمون بدعوة حســين بن على، وإلى باشــية وهم القائمون بدعوة على باشــا» وقد ساهم هذا الصراع السياسى فى تدعيم ظاهرة انقســام المجتمع القبلى بين قبائل موالية للحكم المركزى وأخرى معارضة له إلى حدود الاســتعمار الفرنسى. انظر، ابن أبى الضياف، الإتحاف... جـ ٢، ص ١٤٠.

ونفـات ما بين عفـارب وأولاد البان وأولاد عيار ما بين الكاف والحـدود الجزائرية. كما يجـد كلا الصفين تحالفات فى المدن الكـبرى. فنصف مدينة فابس ونصف منطقة الجريد والسـاحل يتحالـف مع بنى زيد ونصف المدن الأخرى بمـا فى ذلك صفاقس يتحالف مع الهمامة. ولا يجب أن نعتبر موالاة صف للباى اعترافا كليا بسلطته دون معارضة. لا شىء يـدل على ذلك، فالحكومة لا تسـاند الهمامة إلا لمقاومـة بنى زيد. وهكذا يعيش أصحاب السـلطة فى أمن وسـط هـذه الصراعات التى لا تنتهى. إلا إنهـم، لا يعتمدون كثيرا على وفاء أنصارهم كلما تعلق الأمر برفع الضرائب، فالمشاكل تتأتى من كلا الجانبين. فالأحرار يعتبرون رفضهم لدفع «العشـر» لسلطة معادية لهم مشـروعا بينما يعتبر الصف الثانى أنه دفـع بما فيه الكفاية مـن أرواح رجاله عند مقاتلة أعداء الحكومة ولا يجب أن يدفع أكثر من أمواله. فقبيلة ورغمة، نظرا لأنها من صف الهمامة، لا تدفع الضرائب إلا عندما يحلو لها وهى مع ذلك من أخطر القبائل...»[1]

ولعـل أشـهر القبائل المخزنية هـى قبيلة دريد. فقد ذكرت جل المصـادر الغربية منذ القرن ١٨ أنها «كثيرة العدد ومن أقوى القبائل كما أنها لا تدفع أية ضريبة بل تتلقى من الحكومة مقدارا ماليا مقابل الخدمات العسكرية التى تقدمها لها. فهى توفر للمحلة آلاف الفرسـان كلما خرجت لرفع الضرائب...»[2]. ويمدنا Pellissier بمعلومات أوفر حول هذه القبيلة التى «لا تمتلك مقرا محددا وتنقسـم إلى عدة فروع يقطن بعضها الجزائر فى منطقة قسـنطينة وينتشـر أغلبها فى كامل أرجاء شمال وغرب الإيالة. تقوم بعض فروعها برعى الغنـم ويتعاطـى البعض الآخر الأعمال الفلاحية كزراعة الحبوب أو يشـتغلون كمزارعين «خماسـة» فى أراضى البيليك... يسـاهم فرسانها[3] فى المحلة المتجهة نحو بلاد الجريد ويغتنـم هؤلاء الفرصة لمقايضة حبوب المناطق الشـمالية التى يحملونها معهم بتمور منطقة الجريد...»[4].

---

(1) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Régence de Tunis, effectue en 1874» Nouvelles annales des voyages de la Geographie et de l'Histoire, Paris 1923, p. 306.

(2) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 56.

(٣) يحددهم Filippi فى الفترة نفسها بـ ٢٥٠٠ فارس.

Monchicourt (C), Documents historiques sur la Tunisie... op. cit., 312.

(4) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis... op. cit., P. 185 – 186.

٢ - القبيلة التونسية خلال القرن ١٩:

يعتبر «وصف الإيالة التونسية» لـ Pellissier De Reynaud أهم الأعمال التى قدمها رحالة القرن ١٩ عن تونس. وتكمن أهمية هذه الدراسة فى دقة الوصف لكامل مناطق البلاد التونسية على كل المستويات، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. كما يمكن أن نعتبر الخريطة التى أوردها ممثل القنصلية الفرنسية فى كتابه وثيقة مهمة لدراسة جغرافية البلاد التونسية وتحديد مناطق استقرار مختلف القبائل. إلا إنه عدل عن البحث فى أصول هذه القبائل واكتفى بتعدادها حسب موقعها الجغرافى من الشّمال إلى الجنوب. ولعل ذلك يعود لصعوبة البحث الميدانى. بل إن الخوض فى البحث عن جذور القبائل التونسية كان شبه مستحيل للأوربيين آنذاك إذ إنهم كانوا يمرون بمختلف المناطق مرورا سريعا ولم تكن السلطة المحلية تسمح لهم بالسبر أو الإحصاء. وما تحصل عليه Pellissier فى منتصف القرن ١٩ من معلومات عن المجتمع التونسى عموما لا يعدو أن يكون خلاصة عدة سنوات من التحقيقات لدى سكان الإيالة وشيوخ مختلف القبائل، نظرا للمهمة السياسية التى اضطلع بها خلال إقامته بتونس، مع ما تحمله تحقيقاته من هنات ونقائص.

وعلى غرار اعترافات باحثى الفترة الاستعمارية والمعاصرين، فإن «التعرف إلى الخليط القبلى والجذور الإثنية لأى قبيلة ما يبقى صعب المنال إذ إن كل القبائل استعربت من حيث اللغة والدين والثقافة منذ زمن بعيد... وحتى أسماء العلم التى تعود إليها جل القبائل لا تعنى شيئا حيث إن القبائل البربرية التى لم تفر أمام الزحف الهلالى اندمجت مع القبائل الزاحفة واتخذت اسم مجموعة معينة...»[١]. وقد حاولت Lucette Valensi فك لغز الجذور التاريخية للقبائل التى عنتها بالدرس، إلا إنها اعترفت فى نهاية الأمر أن ضبط تاريخ مختلف القبائل وأصولها يبقى شبه مستحيل. فالقبائل تضبط تاريخ مجيئها وتكوينها وتنظيمها بنفسها معتمدة على أسس أسطورية تناقلتها الأجيال وتغيرت من فترة لأخرى...[٢]. ذلك ما تبرزه، على سبيل المثال، ملحمة قدوم واستقرار قبيلة المرازيف فى

(1) Despois (J), La Tunisie orientale, Sahel et basse steppe, 2éme éd, P. U. F, Paris 1956, p. 169.

(2) Valensi (L), Fellahs tunisiens... op. cit., p. 10.

الجنوب التونسي. فالرواية التي يتفاخر في ذكرها الأحفاد بالجدود الأولين، تبرز مدى سيطرة الجانب الأسطوري على أحداثها. كما تتداخل في مختلف مراحل تكوينها الجذور العربية بالبربرية بحيث يعسر على الباحثين المعاصرين فك ألغازها[1].

نتحاشى من ناحيتنا الدخول في الجزئيات المتعلقة بخصوصيات القبائل التونسية وتركيبتها الاجتماعية والنظام القبلي الذي يسود البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة. فالدراسات تعددت من هذه الناحية[2]. ونقتصر على تصنيف القبائل التونسية حسب ما ورد في آثار الرحالة الأوربيين. فإلى جانب تقديم القبائل وفروعها أو بطونها حسب العبارة المحلية، من الشمال إلى الجنوب، أشار الرحالة إلى طبيعة كل قبيلة إن كانت مستقرة أو مرتحلة أو مُغِيرة. وهذا من شأنه أن يدعم ما خلصت إليه الدراسات المعاصرة من تحولات طرأت على المجتمع البدوي خلال القرن ١٩.

(أ) من الترحال إلى الاستقرار:

من خلال وصفي Marmol وأبي الحسن الوزان في مستهل القرن ١٦ يبدو أن بعض القبائل تمركزت على الشريط الساحلي من شمال البلاد إلى جنوبها وفي بعض السهول الخصبة وحول الأودية. بينما أبقت غالبية القبائل الأخرى على ترحالها داخل البلاد ما بين مناطق السباسب العليا والسفلى وتخوم البلاد الجبلية والصحراوية معتمدة على نمط عيش قوامه تربية الجمال والصيد والإغارة... كما تعتمد بعض القبائل على مقايضة العبيد بسلع تقتنيها من تجارة البندقيين مع المدن الساحلية[3].

اجتمعت القبائل المستقرة على الشريط الساحلي الممتد من طرابلس إلى شمال البلاد التونسية، في شكل قرى و«دواوير» مثلما أشار لذلك أبو الحسن الوزان. وارتكز معاش البدو

---

(1) M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme...» op. cit., pp. 137 – 193.

(٢) لعل أبرزها دراسة Lucette Valensi ودراسة الأستاذ مبروك الباهي المذكورتان آنفا وأطروحة دكتوراه للأستاذ خليفة شاطر حول: «التبعية وتغيرات ما قبل الاستعمار: الإيالة التونسية من ١٨١٥م إلى ١٨٥٧م».

Chater (K), Dépendance et mutations précoloniales: la Régence de Tunis de 1815 à 1857, Tunis, P. U. T 1984.

حول الدراسات التي عنيت بالقبيلة في تونس الحديثة انظر الباهي (مبروك)، المرجع نفسه، ص ٢١. باشية.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 91.

فى هذه التجمعات السكنية على أعمال مختلفة كزراعة الحبوب وغراسة بعض الأشجار المثمرة أو تربية الماشـية كالضأن والخيول أو بعض الأعمال اليدوية أبرزها النسـيج، وقد دعم نظام البايات منذ بداية القرن ١٧ استقرار البدو فى هذه المناطق لتأمين حياة سكان الحواضر وإنجاح مشـروعه السياسـى الرامى إلى فرض مبـدأ «الأمن الجماعى» والاقتصـاد القائم على القرصنة والمبادلات التجارية[١]. ولم تول الإدارة المركزية فى بداية الأمر اهتماما بالمناطق الشـاغرة من التراب التونسـى بل ركزت حملاتها على مناطق استقرار بعض القبائل ومسالك مرور البعض الآخر فى ترحالها لفرض سيطرتها عليها، ومن دانت له الأشخاص ملك الأرض قهرا»[٢].

انطلاقا من القرن ١٨ أشـارت جل آثار الرحالة الأوربيين إلى انتشـار القبائل المستقرة فـى كامل تراب الإيالة مـن شمالها إلى جنوبها إما طواعية لارتباطها بالأرض أو قهرا أمام بطش السـلطة المركزية[٣]. وتمثل المشـهد الجديد فى استقرار القبائل الكبرى وخاصة منها تلك التى تقطن السباسب العليا والوسطى والتى حددها Pellissier سنة ١٨٤٣م بأربع:

قبيلـة جـلاص: وهى بدورها تنقسـم إلى أربعة فروع أو «بطـون»: أولاد إيدير، شمال القيروان، سنداسـن جنوبها، الكعوب أو القوازين خلف جبل وسلات وأخيرا يقطن أولاد خليفة شـرقى سنداسـن. وكانت هذه القبيلة فيما قبل، تنضم تحت قيادة واحدة أما الآن فهى تنقسـم إلى قيادات ثلاث: أولاد إيدير، أولاد خليفة وسنداسـن والقوازين. وتوفر هذه القبيلة لحكومة الباى ثلاثة آلاف فارس كلما اقتضت الحاجة[٤].

---

(١) يعتبر مبروك الباهى أن «إيقاع التاريخ التونسـى مال منذ الحضور العثمانى إلى حلبة المتوسـط وانتصبت السلطة وسيطا بين الأرياف متنوعة الإنتاج وبين ذلك المركز...» القبيلة فى تونس... المرجع نفسه ص ٢١.

(2) Bachrouch (T), Formation sociale barbaresque... op. cit., p. 158.

(٣) يتحدث مبروك الباهى عن عامل «الحوز وأهمية الظاهرة الولائية فى تشـكيل المشـهد العقارى السياسـى...»، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث... المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٤) إلى حدود القرن التاسع عشر لم تكن تساهم فى توفير الجنود أيام الحرب إلا القبائل المخزنية. وفى عهد حمودة باشـا باى الحسـينى (١٧٨٢م – ١٨١٤م) أرغمت كل القبائل على تقديم يد العون للحكومة المركزية أيام المحن وذلك بتقديم نسبة من خيرة فرسانها لمعاضدة الجيش الحكومى. يقول Louis Frank، الطبيب الخاص لحمودة باشا: «كلما وجد الباى نفسه مجبرا على شن حرب على باشا طرابلس أو بايات قسنطينة أرغم القبائل على جمع قوة عسكرية كبيرة تبلـغ قرابـة أربعين ألف جندى... بعد جمع الجيش التابع له مباشـرة، يطلب من قبائل العـرب البدو قاطبة مناصرة الإيالـة... لم تكـن هذه القبائل تتراجع قط عن هذا النداء يحدوها فى ذلك أمل الحصول على غنائم على حسـاب العدو المنهزم وحتى على حساب أهالى الإيالة الذين يعترضون سبيلها... ويتكون جيش هذه القبائل من فرسان فقط»

Marcel (J. J), Tunis... op. cit., pp. 74 – 75.

قبيلة ماجر: تحتل هذه القبيلة منطقة حاجب العيون إلى حدود واد الفكة وتنقسم إلى «برادع» ثلاث: أولاد منا ويستقر هؤلاء حذو وادى جلمة، فهد قرب جبال مكيلة والشكاتمة نحو الغرب فى سبيبة. وتوفر قبيلة ماجر ألفى فارس.

قبيلة الفراشيش: لهذه القبيلة فروع ثلاثة وهى: أولاد نجدى، على حافتى وادى الفكة الأعلى ووادى الدرب، أولاد على والوزاز قرب الحدود الجزائرية. ويوفر الفراشيش من جهتهم ألف فارس.

قبيلة الهمامة: تقطن هذه القبيلة جنوب ماجر والفراشيش إلى حدود منطقة الجريد وتنقسم إلى فروع ثلاثة: أولاد عزيز جنوب جبل عرباط وأولاد رضوان شمال جبل ماجورة وأخيرا المعامرة فى منطقة بير الحفى والسوينية إلى حدود فريانة. توفر قبيلة الهمامة عند الطلب ثلاثة آلاف فارس[1].

كما أكدت غالبية المصادر الغربية على أن كل هذه القبائل المستقرة تعتمد فى نمط عيشها على أعمال فلاحية دورية تجبرها على الاستقرار كالزراعات وتربية الماشية فى المراعى القريبة من القرى والدواوير. كما أنها تتجمع حول ولى صالح يكون غالبا مؤسسها أو أحد أحفاده تنسج حوله جملة من الكرامات ويحميها وقت الحاجة. ذلك ما ذكره أحد رحالة منتصف القرن ١٩ عن قبيلة الفراشيش التى «تتكون من «برادع» أو فروع ثلاثة كل واحدة لها «زمالتها»، أى العائلات المكونة لها. «ويحكم القبيلة فايد[2]. يعيش الكل تحت الخيام وهم فى آن واحد فلاحون ورعاة متنقلون. تتنقل قطعانهم الكبيرة داخل مساحة شاسعة تترامى أطرافها من الغرب إلى الحدود الجزائرية. ينسجون أغطية بصوف خرفانهم وبرانس جيدة... تجتمع زمالة أولاد على، وهى إحدى فروع قبيلة الفراشيش حول سيد بولعابة وهو وليها الصالح. وحول ضريحه تنتشر مقبرة قبيلة الفراشيش جمعاء...»[3].

---

(١) تضيف Lucette Valensi أن: «أولاد سيدى سليمان والحوامد والقمامدية وأولاد سيدى بوزيد لا ينتسبون من حيث أصولهم لأولاد رضوان أحد الفروع الأساسية للهمامة... فالقمامدية يحتلون منذ أمد طويل حافة الوادى المسمى باسمهم نحو زاوية الصداقية، ولا نعرف أصولهم التاريخية شأنهم فى ذلك شأن القبائل الثلاث الأخرى التى عاشت دائما بين أبناء قبيلة أولاد رضوان» Valensi (L), Fellahs... op. cit., p. 37.

(٢) كانت الإيالة تنقسم إداريا إلى «فيادات» يترأس كل واحدة «فايد». وتنقسم الفيادات بدورها إلى «مشايخ» (مشائخ).

(3) Guérin (V), Voyage archéologique.. t. 2, op. cit, pp. 307 – 308.

ما هى إذن العناصر التى حددت استقرار القبائل على امتداد العصور؟ وهل الاستقرار هو إرادة سياسية للضغط على البدو والرحل وإجبارهم على دفع الجباية فحسب؟ أم هى ظاهرة اقتصادية بحيث إن القبائل الرحل تأقلمت مع بيئة معينة وتفاعلت مع نمط عيش أجبرها على الاستقرار وتغير «نمط إنتاجها»؟!.

يبدو أن كل هذه العناصر الطبيعية والسياسية والاقتصادية تفاعلت تدريجيا خلال الفترة الحديثة لخلق مجال جديد ساعد بل أجبر فى بعض الأحيان قبائل الوسط التونسى وبعض قبائل الأطراف الشمالية والجنوبية للإيالة التونسية على الاستقرار. وربما كان للعامل السياسى الدور المحدد فى هذه الظاهرة التى غيرت من نمط عيش البدو الذين استقروا نهائيا أو أبقوا على ترحالهم فى مجال جغرافى ضيق مثلما تقتضيه حاجة ارتباطهم الوثيق بالأرض كما يشير إلى ذلك الأستاذ مبروك الباهى بأن التحول من الاعتماد على الجمل للترحال إلى الاستقرار بتربية الخرفان ترافق مع تعديل طبيعة الرحلة والعلاقة مع المجال، إذ أصبحت التجمعات السباسبية تقتصر دورة تحركها فى الغالب على مجالاتها المخصوصة...[1]. وما إشارة Louis Frank إلى أن «القبائل التونسية أصبحت منذ حكم حمودة باشا باى تساهم فى مد الجيش النظامى بخيرة فرسانها وقت الحاجة» إلا دليل على ولائها للسلطة المركزية وامتثالها لمشيئتها[2]. ولئن أبقت بعض فروع من قبائل الوسط والجنوب التونسى على تمردها وطابعها المعادى لأى شكل من أشكال الإرادة السياسية فذلك أمر شاذ لا يتناقض مع الظاهرة العامة للاستقرار الذى شمل معظم القبائل التونسية. نضيف إلى ذلك ما أشار إليه الرحالة من انتشار الطرق الصوفية[3] واستقرار الأولياء الصالحين وأصحاب الطرق فى مناطق معينة تبعهم إليها أتباعهم وكل من اعتقد فى كراماتهم.

تفاعلت إذن عدة عناصر على مشارف نهاية الفترة الحديثة لتغير من نمط عيش الجزء الأكبر من البدو فى الإيالة التونسية وذلك بتشكل النظام القبلى التونسى وبروز القبيلة التونسية كوحدة بشرية/ ثقافية تطورت فى صلبها شريحة من المجتمع التونسى جبلت

(١) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث... المرجع نفسه، ص ٢١٧.

(2) Marcel (J. J), Tunis... op. cit., pp. 74 – 75.

(٣) أو ما عبر عنه مبروك الباهى «بالتزوى»، المرجع نفسه.

قديما على الضرب فى البوادى والقفار وآلت بتدرج إلى الاستقرار فى مواضع اتخذت منها مـوارد رزقها بتعاطيها الأعمال الفلاحية كالزراعة والغراسـة وتربية الماشـية أو المبادلات التجارية مع الحواضر المجاورة لها[1].

كما طور البدو المستقرون فى آن واحد نمط عيشهم إذ «تدجنوا» وسايروا سكان الحواضر طباعهم وبعض عوائدهم وتعاملهم. وتقسـيم المجتمع التونسـى، حسب طباعه إلى «سكان ذوى مساكن قارة» و«عرب القبائل الرحل»، الذى اعتمده Pellissier فى منتصف القرن ١٩ يدل بوضوح على تأقلم المستقرين من البدو مع ما يحتمه الاستقرار من تغير فى سبل العيش والطبائـع «الهادئـة» بعيدة عن «التوحش» الذى يقتضيه الترحـال[2]. وفى انحدار البداوة عشـية القرن ١٩ نحو الاستقرار والتخلى عن الترحال كإحدى الخصائص الحضارية لأبرز شريحة من المجتمع التونسى الحديث تدرج طبيعى نحو انقراض القبيلة كوحدة اجتماعية/ ثقافية متجانسة فرضت سيطرتها على المجال الجغرافى التونسى لقرون متتالية.

وإن اعتبر البعض أن الفاعل الاسـتعمارى هو الـذى قوض التنظيم القبلى بتونس، فإن تطور المجتمع التونسـى خلال الفترة الحديثة بتفاعل العوامل السياسية والاقتصادية يبدو المحـدد فى انتقـال البدو الرحل إلى حضريين مسـتقرين[3]. وعبارة «البدو شـبه الرحل» أو «نصـف الرحـل» «semi – nomades»، إنمـا هو مفهوم اسـتعمارى اختلقته الإدارة الاسـتعمارية لإبراز الدور الحضارى الذى قامت به للقضاء على النظام القبلى السائد إبان

---

(١) استغرق تدرج القبائل البدوية نحو الاستقرار «زمنا غير هين تدرجت فيه قبائل الشمال قبل وسط البلاد وجنوبها. ومن ثم فالمعتقد أن بداية المرحلة الأولى من اسـتقرار عروش مجردة... لم تتحقق إلا خلال القرن ١٦ عندما بدأت تتوطد علاقتها بالأرض والنشـاط الزراعى بينما تسـتمر هذه الدورة الأعاشـية المرتبطة بالجمل عند الهمامة فى السباسب حتى القرن ١٨ ولدى ورغمة فى جنوب الأعراض حتى القرن ١٩». الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(2) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 331.

وقد خلص صاحب «العبر» من قبل إلى أن العرب إذا ركنوا إلى الاسـتقرار فى مكان «إنما همتهم الكسـب وخصب العيش والسـكون فى ظل الدولة إلى الدعة والراحة... فتذهب خشـونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة... وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك...» المقدمة... المرجع نفسه، الفصل الثامن عشر، ص ١٧٥.

(٣) يعتبر مبروك الباهى أن التاريخ القبلى «انتهى فى السباسب الوسطى كما هو فى مناطق أخرى قبل غروب العهد الحديـث إلى تحـولات على غاية من الأهمية فى أنماط العيش والتفاعل مع المحيط والأجوار بفعل عوامله الداخلية التى يصعب الإحاطة بها». الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الجديد...، المرجع نفسه، ص ١٣.

الإحتلال[1]. إلا أن الاستعمار الفرنسى، وإن لم يكن العامل الأساسى فى تطوير ظاهرة البداوة فى تونس عشية القرن ١٩، فقد ساهم بطريقة غير مباشرة فى استقرار بعض القبائل البدوية التونسية وذلك بإدخال تغيرات جذرية على النظام السياسى. فقد عدلت القبائل المخزنية التى كانت موالية للعائلة الحسينية الحاكمة من نمط عيشها على غرار قبيلة دريد «التى كانت من قبل قوية بإمكانها أن تجمع آلاف الفرسان لمعاضدة فرق الجيش النظامى... أما الآن فساعة انهيار قبيلة دريد قد دقت؛ إذ خسرت كل امتيازاتها وانقسمت إلى عدة مجموعات بائسة تهيم فى مناطق خصبة عاجزة على حرثها وزرعها وسوف تجبر بدون شك على التفريط فيها لمن هو قادر على استغلالها... وقد عدل قائدها منذ سنوات على العيش تحت خيمته واستقر فى بيت حجرى... وقد أخذنا فى نزهة داخل حديقته حيث غرس أشجارا مثمرة متنوعة...»[2].

(ب) التمرد البدوى:

اتسمت العلاقات بين بعض القبائل التونسية بالاحتداد بل بالصراع – شبه المتواصل – على امتداد عدة قرون. وقد حاولت مختلف الدراسات المعاصرة أن تجد تفسيرا لهذه الصراعات القبلية؛ ففى حين يرى بعض المؤرخين أنها تعود بالدرجة الأولى إلى أسباب اقتصادية مرجعها الأصلى التناحر للسيطرة على الأراضى الخصبة والمراعى[3]، أو تمثلت

(١) درجت العبارات فى كتاب Mayet الذى زار الجنوب التونسى سنة ١٨٨٤م والذى يعتبر أن سكان منطقة الجريد «استقبلوا الاحتلال الفرنسى بكل حفاوة لأنه خلصهم من خطر القبائل الغازية».

Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien, Paris, Challemel 1887.

انظر كذلك:

M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme. Le Sud - Ouest tunisien au XIX e siécle», in, Le Sahara, lien entre les peuples et les cultures, actes du colloque organisé à Douz du 19 au 22 décembre 2002, édité par la chair Ben Ali pour le dialogue des civilisations et des religionsp. 139.

(2) Fallot (E), Une excursion a travers la Tunisie central, Marseille 1890, p. 89.

(٣) يعتبر Jean Ganiage أن ظاهرة الصراع القبلى «ظاهرة عادية تعود بالدرجة الأولى إلى الحدود الطبيعية لكل قبيلة... وأن ذلك ما يجيش الحزازات القديمة...».

Ganiage (J), Les origines du protectorat francais en Tunisie, 1861 - 1881, P. U. F, Paris 1956, p. 142.

فى شـكل مصادمات بين دوار وآخر حول نبع مياه، أو غارات كانت تسـتهدف الماشـية بالدرجـة الأولى...[1]، كمـا ركز البعض الآخر على النظريـة الخلدونية التى تعتمد ظاهرة «العصبية القبلية»، فى اتحاد والتحام المجموعات البدوية[2].

إلا أن الأوربيين الذين زاروا الإيالة التونسـية خلال الفترة الحديثة قد اكتفوا بذكر هذه الصراعات دون تقديم تفسـيرات شـافية لهذه الظاهرة وعلقوا عليها بكثير من الاسـتغراب خاصة إذا قابلت فرعين من فروع القبيلة نفسـها. وإن حاولوا فى بعض الأحيان التحقيق فى الأمر، فإن تحليلهم كان غالبا سطحيا أو تشوبه بعض الأفكار المسبقة حول طبائع البدو المتوحشـة. ومع ذلك، فإن كتاباتهم انفردت بالتفرقة الواضحة بين مظاهر ثلاثة من تمرد البدو وطباعهم العدوانية[3]: «عصيانهم» للسلطة، مثلما أبرزنا ذلك آنفا، و«الصراعات» التى تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل و«الغارات» التى تقوم بها قبائل أو مجموعات بدوية توارثت هذا النوع من «القرصنة» البرية[4] والتسلط الجماعى.

ولعـل أبـرز أوجه هذه الصراعات هى المواجهة التى كانـت تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل منذ قرون «دون سبب واضح» بالنسبة لهؤلاء الأجانب؛ إذ تعسر عليهم فهم عمـق الصراعات القبلية التى تحتد بين قبيلتين أو أكثر حسـب قانون الموالاة أو العداءات القديمة المتوارثة[5]، والقائمة على أسس روابط وخلافات حددتها طبيعة عيش البدو المادية

---

(١) الإبل والأغنام كانت المطمع الأول للمغيرين على عروش السباسب التى تقدم بها الاستقرار... الباهى (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٨٤. انظر كذلك Despois (J), La Tunisie orientale... op. cit., p. 162.

(2) Chrif (M. H), «Les mouvements paysans...» op. cit., p. 25.

يقـول ابـن خلدون فى هذا الصدد «أما حللهم (البدو) فإنما يذود عنها من خارج حامية الحى من أنجادهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد...» المقدمة... ص ١٥٩.

(٣) فسـر صاحب المقدمة هذه الطباع بأن «صار البأس للبدو خلقا والشـجاعة سـجية... فكانوا لذلك أشـد الناس توحشا» ابن خلدون، المقدمة... المرجع نفسه، ص ١٥٥.

(٤) حسب العبارة التى استعملها Marmol فى بداية القرن ١٦ «وسكان المنطقة (المنطقة الشمالية) فقراء بسبب ما يدفعونه للملك كما أنهم يعانون من قرصنة العرب الذى يروعون كامل المنطقة» Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 531.

(٥) يتحدث التيجانى فى رحلته فى بداية القرن ١٤ عن علاقة قبيلة ورغمة بجيرانها فيذكر أن لها عداوات متأصلة مـع أهل غمراسـن «ولها أيضا حقد على النفاتيين وبينهم دمـاء...» التيجانى (محمد بن أحمد)، رحلة التيجانى، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٨٥م، ص ١٣٧. وهى العداوات الباقية إلى حدود القرن ١٩ نفسها.

وتراكمـــات ثقافية تعود فى غالـــب الأحيان إلى زمن قدوم القبائل العربية واســـتقرارها فى شمـــال إفريقيا. ويعلق Pellissier على هذه الصراعات قائلا: «قل وندر أن يســـتتب الأمن والتصالح بين القبائل الأربع المكونة للوســـط التونســـى، إلا أن الحرب ليست عامة وتقتصر على مناوشات بين دوار وآخر غالبا ما ينتميان للقبيلة نفسها. عندما كنت بتونس اشتعلت فتيلـــة الخلاف بين قبيلة أولاد ســـلامة وقبيلة أولاد علـــى – اللتان تنتميان إلى القبيلة الأم الهمامة – ولا يســـتبعد البعض أن هذا الخلاف قد أدى إلى مقتل ١١ رجلا، والغريب فى الأمر أن سبب الخلاف كان تافها يتمثل فى مقتل حصان»[1].

وقد تتخذ هذه الصراعات فى بعض الأحيان شكل حرب ضارية تتوارثها الأجيال فتشتعل تـــارة وتخمد أخرى وتتداخل فيها المصالح المادية والصراعات السياســـية والأعراف القبلية كقانـــون الموالاة والأخذ بالثأر والتزاوج... وقد عايش Pellissier إحدى هذه الصراعات بل كان طرفا فيها عندما حاول أن يصالح بين قبيلتى بنى زيد وورغمة اللتان تحتلان الجنوب الشرقى من البلاد التونسية. كان ذلك فى شهر يوليه من سنة ١٨٤٦م عندما كانت القافلة المرافقة له تقطع منطقة مدنين، فعلم أن «القبيلتين دخلتا فى صراع منذ يومين» ولم يتوقف الصراع على الطرفين المتعاديين فحسب بل جر مجموعة من القبائل الموالية لهذه أو لتلك، بحيث أصبحت كامل المنطقة الجنوبية الشـــرقية فى حالة حرب واســـتنفار قصوى. وفى خضـــم هذه الوضعية المتوترة عبر «خليفة ورغمة» لنائب القنصل الفرنســـى عن «اســـتعداد أهله لمصالحة أعدائه» وطلب منه التدخل لدى الباى «حتى يســـتقبل ممثلين عن القبيلتين المتعاديتين ليصالح بينهما على أسس صلبة». وتقدم «شيخ الحامة» عن قبيلة بنى زيد لمثل الدولة الفرنسية بالطلب نفسه. وقد حاول Pellissier القيام بدور الوساطة عن طريق القنصل الفرنســـى نفسه، إلا أن مســـاعيه لم تكن مجدية ولم يعر الباى الوساطة الفرنسية اهتماما. تواصل الصراع لبضعة أشهر ولم تهدأ الأوضاع إلا لطول مدة الصراع وتزايد عدد القتلى من

---

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 129.

يؤكـــد مـــبروك الباهى أن الإغارة كانت تتم من «أجل الماشـــية والحبوب بينما كان الاقتصاد فى إراقة الدماء شـــعار البدوى الغازى إذ لا تســـقط الأرواح إلا عرضا. ولئن كان الغزو يســـمح بنهب كل الممتلكات بما فى ذلك الســـلاح فلم تكن الأعراف فى تونس تسمح بالتعدى على اللفائف الضعيفة من شيوخ ونساء وأطفال» الباهى (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٨٤.

بين الطرفين المتعاديين. ويضيف صاحبنا أن «القبيلتين حملتا السلاح من جديد عند رحيلى من تونس فى ربيع ١٨٤٨م وهذه الحروب المتقطعة بين القبائل المتعادية أمر عادى يتواصل على النسق نفسه منذ قرون»[١].

وإن كانت المنافسات القديمة والأعراف القبلية الموروثة تمثل السبب الرئيس فى إضرام شعلة المصادمات بين القبائل فإن السلطة المركزية لعبت دورا مباشرا فى احتداد الأوضاع المحلية بأن تجاهلت مثل هذه الأحداث تاركة المجال لما تعودت عليه هذه القبائل منذ قرون من تصفية حسابات قديمة، بل فى تناحرها راحة لأصحاب النفوذ. وما تجاهل المشير أحمد باى تدخل القنصل الفرنسى لفض النزاع بين قبيلتى ورغمة وبنى زيد إلا دليل على رغبته فى تواصل النزاع ما لم يكن الأمر موجها ضد الدولة أو أحد ممثليها. والحال أن هذا الباى نفسه تنقل قبل بضع سنوات بجيش «عرمرم» لإخماد فتنة اندلعت فى المنطقة نفسها ضد عامل الأعراض. وهى سياسة اتخذتها سلطة البايات فى الواقع للتفرقة بين مختلف القبائل البدوية ودعمتها على امتداد القرن ١٩ باعتمادها «سياسة التمايز القبلى» وإفساح المجال للقبائل المخزنية الموالية لها بأن تهيمن على بعض المناطق على حساب قبائل أخرى ركنت إلى نفوذ العمال وأعوان الدولة[٢].

أما «الغارات» التى احترفتها بعض القبائل «المغيرة» المتمردة أو «قطاع الطرق» الذين ينهبون العامة لصالحهم الخاص فقد أبهرت الجميع وأطنب جل الرحالة الأوربيين فى ذكرها، ومدونا بأدق التفاصيل عن وقوعها. ويبدو أن ظاهرة الإغارة كانت أكثر انتشارا فى أوائل العهد الحديث ولم تقتصر على «الغارات المنظمة» بل تمثلت فى عمليات «قطع الطريق» الجماعية أو الفردية وخاصة فى المناطق الصحراوية النائية حيث تعيش مجموعات تشكو الخصاصة والفقر، على غرار أولئك الذين اعترضوا سبيل أبى الحسن الوزان فى بداية القرن ١٦ فى المناطق الصحراوية الفاصلة بين تونس وطرابلس حيث «يعيش سكان أقرب منهم إلى الحيوانات، حفاة عراة هلكهم الجوع... فكانوا يرسلون أطفالهم للقيام بأبشع عمليات السطو التى تقع على وجه البسيطة ونهب المارين من هذه المناطق»[٣].

(1) Pellissier (E), Description de la Regence de Tunis op. cit., pp. 208 – 210.

(٢) انظر، الباهى (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١١٦.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 92.

خـــلال القـــرن ١٩ ، اقتصرت الإغارة أو ما يعبر عنها «بالتغريبة» على بعض القبائل أبرزها قبيلتى النمامشة والحنانشة على امتداد المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية وقبيلة أولاد سعيد بالمناطق الشمالية وقبيلة الهمامة فى وسط البلاد التونسية ومنطقة الجريد وقبيلة أولاد زيد بالجنوب الشرقى[١]. وقد أجمع كل الرحالة على أن هذه الغارات التى تقوم بها بعض القبائل على جيرانها «لا تعدو أن تكون أمرا عاديا للغاية يجد فيه البدوى الفرصة للتباهى باســتعمال الســلاح»[٢]. كما هى «عادة مزمنة ومتأصلة فى البدو»[٣] نظرا لطبيعتهم المتوحشة ، إلا أن تفاقم الأوضاع المادية للبادية خلال القرن ١٩ قد شــجع بعض القبائل التى تمرست بالإغارة وورثت مهاجمة القبائل المجاورة والقوافل التجارية المارة من المناطق التى تسيطر عليها أبا عن جد[٤]. لذلك تمثلت مطامع المغيرين فى السطو بالدرجة الأولى على الإبل والأغنام.

وللغارة أعرافها ونواميســها والتى يمكن أن نستشــفها من خلال الوصف الدقيق الذى مدنا به بعض الرحالة لغارات عاشــوا وقائعها وســجلوا أحداثهــا. إلا إننا لا نجد أثرا لما يســبق الغارة من ترتيب كإقــرار «ميعاد»[٥] وتحديد القبيلة موعد ومــكان الغارة. ولنا فيما ســاقه الصغير بن يوســف الباجى عن غارة قبيلة الحنانشة على عرش زواغة فى منتصف القرن ١٨ أحســن مثال. فقال: «وكان إذ ذاك شــاع عند الناس خبر زواغة بما عندهم من الســعى ومالهم من الثروة... شاور بوعزيز (شيخ قبيلة الحنانشة) ثقاته وقد علم بما لزواغة من السعى والصياغة. قالوا له: يا شيخ إن فاتتك هذه الغنيمة ، وأى غنيمة من هذه الرعية الذميمة وفؤاد البهيمة... فقال بوعزيز: عند المغرب نسيروا ، وعند الصباح على القوم نغيروا والتمت على العيايدة من كل عرش وأنتهم مشايخ عمدون وأولاد بوسالم وشيحة... ولما طاح الليل وركبت الخيل وتمّوا ســايرين وعلى زواغة عاملين إلى أن طلع الفجر ولاح فوصلوا إلى منازل عرش زواغة المغرورين...»[٦].

---

(١) انظر Chif (M. H), «Les mouvements paysans...» op. cit., p. 28.

(2) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Régence de Tunis...», op. cit., p. 306.

(3) Guérin (V), Voyage archeologique, t. 1, cit, p. 218.

(4) Mayet (V), Voyage dans le Sud de la Tunisie. Paris: Challamel, 1887, p. 354.

(٥) وهو عبارة عن مجلس يضم كبار القوم تحت إمرة شــيخهم. وللميعاد مهمة أخذ القرار الجماعى فى كل الشــئون التى تهم القبيلة.

(٦) الباجى (الصغير بن يوسف)، المشرع الملكى... المرجع نفسه، ص ١٥٢.

ونواصل تفاصيل الغارة مع فرسان قبيلة الهمامة المغيرة فى منطقة الجريد فى حدود سنة ١٨٧٠م حسب شهادة الرحالة الفرنسى Rebatel. يذكر هذا العالم أن «الهجمات الصغيرة تتكون عادة من خمسة إلى خمسين حصانا بينما تصل الكبرى إلى مائتين أو مائتين وخمسين فارس، ويمكن لهؤلاء أن يقطعوا تحت ريادة قائدهم أكثر من مائة وخمسين كيلوا مترا من دوارهم. وعند وصولهم قرب محط رحال القبيلة المعنية، يحاولون الاقتراب أكثر ما يمكن دون أن يفطن لهم الأهالى بأن يختفوا خلف المرتفعات من الأرض أو وسط أسرة الأودية النابضة. ثم ينقض خمسة أو ستة من أقدر الفرسان بسرعة كبيرة على الرعاة المعزولين ليجروا أمامهم ما يمكنهم حمله من الخرفان والإبل. كما يتجهون بأسرع ما يمكن نحو مقر القبيلة لحمل عدد أكبر من القطيع فى حين يبقى الفرسان الآخرين خلفهم لحماية ظهورهم ضد أى هجوم محتمل. ترتكز هذه الخطة البدائية على عاملى المخادعة وسرعة تنفيذ العملية. لذلك يعتمد الفرسان على قدرات خيولهم...»[١].

أما فى الطرف المقابل فالمفاجأة تحدث ارتباكا عارما لدى كل أفراد القبيلة. فى ١٥ مارس ١٨٦٠م، عندما كان Guérin يتأهب لقضاء ليلته فى قرية جرجيس أربكه صياح تعالى فى أرجاء القرية من حناجر النسوة والأطفال[٢] وهو بمثابة المنبه للسكان فى كل الأنحاء معلنا حصول غارة يقوم بها حوالى خمسون فارس ينتمون إلى قبيلة قريبة. وقد تمكن هؤلاء من نهب بضعة مئات من الأغنام وثلاثين بقرة... وقد منعت الظلمة سكان القرية من تتبع قفا الناهبين. وبقى كل السكان على أهبة الدفاع فى حال أن يعيد الغزاة الكرة...»[٣].

اشتهرت بعض القبائل – خلال الفترة الحديثة بأكملها – بتمردها واعتمادها على قطع الطريق والإغارة. وإن تتبعنا مجالات تحرك هذه القبائل ومسارح عملياتها على امتداد القرون نرى أنها كانت تقطن مناطق نائية بالجبال الحدودية الجزائرية التونسية أو متاخمة للمناطق الصحراوية بعيدة عن نطاق نفوذ السلطة المباشرة، أو أنها كانت قبائل حليفة للسلطة تحظى بتغافل السلطة عما كانت تقوم به من عمليات إغارة فى مجالات

---

(١) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Regence de Tunis...» op. cit., p. 306. يتحدث مبروك الباهى عن «الثالوث الذى كان يضمه الجواد لرجال العرش الغوارة» وهى «عناصر المفاجأة وسرعة الحركة وخفتها والهروب من الملاحقة فضلا عن دقة استعمال السلاح» الباهى (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(٢) وهذا الصياح المنبه يعبر عنه المحليون «بالفزعة».

(3) Guérin (V), Voyage archeologique, t. 2, cit, p. 218.

شاسعة كانت تسيطر عليها وتروع سكانها وتجبرهم على دفع إتاوات لها مقابل حمايتها وعدم التعرض لرعاتها وقطع سبيلهم. ولم تكن تتوانى أمام مهاجمة ممثلى السلطة من جباة الضرائب أو المحلة بنفسها.

من أبرز هذه القبائل المغيرة قبيلة الحنانشة التى ذكرها كل الرحالة دون استثناء منذ بداية القرن ١٦ إلى حدود القرن ١٩. فقد ذكر Marmol هذه القبيلة فى منتصف القرن ١٦ وحدد مجال نفوذها «بغابات قسنطينة والقالة». كما قدر عدد فرسانها بـ ٥٠,٠٠٠ [١]. وخص Peyssonnel هذه القبيلة فى بداية القرن ١٨ بحديث مطول ركز فيه بالدرجة الأولى على شيخها «بوعزيز» الذى كان يجلب لنفسه ولقبيلته احترام مختلف القبائل المجاورة له ومخاوف الحكومتين التونسية والجزائرية اللتان كانتا تهابانه وتعترفان له بالسيطرة على كامل المناطق الحدودية الجزائرية التونسية. «وقد تمكن بوعزيز فى العديد من المرات من صد الجيش التركى فى هذه المناطق الحدودية... وهو قوى وشديد البطش، بإمكانه أن يجمع ٨٠٠٠ آلاف فارس. وفى سنة ١٧٢٤م، تكاثفت جهود داى الجزائر وباى تونس وهاجمه جيشا الدولتين على حين غرة فأخذوا منه أكثر من ٨٠٠٠ جمل وعدد كبير من الأبقار والخيام». ويعلمنا الورتلانى[٢] فى سنة ١٧٦٦م أن إبراهيم بوعزيز الحناشى شيخ هذه القبيلة «كان فى تمرد دائم ضد باى قسنطينة؛ ولتفادى رد فعل محلة الباى فر إلى الجنوب التونسى فى منطقة الجريد»[٣].

أما Pellissier فقد حدد موقعها فى منتصف القرن ١٩ على مشارف مدينة الكاف حيث «لا توجد إلا الحدود الطبيعية الفاصلة بين الدولتين (الجزائرية والتونسية) وتنعدم الحدود السياسية غير المعترف بها. وبصفة عامة، كل ما يعود بالنظر إلى الحنانشة هو جزائرى وكل المناطق غير التابعة لهم تونسية»[٤].

---

(1) Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 81.

(٢) هو الحسين بن محمد الشريف الورتلانى (١٧١٠م – ١٧٧٩م) من منطقة ستيف بالجزائر. صاحب كتاب «نزهة الأنظار فى فضائل علم التاريخ والأخبار» انظر تقديمها والتعليق عليها بالفرنسية.

Hadj Sadok (M), «A travers la Berbérie Oriental du XVII é S; avec le voyageur Al Warthilani», Revue Africaine, nº 428 – 429, 3é/ 4é tri. 1951, pp. 315 – 396.

(3) Ibid.

(4) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 178.

أما قبيلة النمامشة فقد اتخذت مجال تحركها عند مداخل المناطق الصحراوية وتحديدا منطقة شط الجريد. وهذه القبيلة فرضت سيطرتها على كامل منطقة الجريد بحيث «يتعرض حتما كل مسافر يقطع هذه المنطقة لبطش مجموعات قطاع الطرق المنتمين لهذه القبيلة، لكن، فى فصل الربيع، عندما تتخذ محلة الباى مقرا لها عند مدينة توزر، يمكن للمسافرين المرور من هذه المنطقة بأمان»[1].

وتبقى «قبيلة الهمامة» من أشهر القبائل المغيرة على الإطلاق. وفى تقديمه لمختلف القبائل التونسية، يعتبر Pellissier أن «لهذه القبيلة صورة سيئة من بين القبائل الأخرى، وهى تستحق هذه الصورة حسب ما شاهدته. هؤلاء العرب ينهبون إلى حدود منطقة صفاقس والساحل. منذ ٣ سنوات تمكن قطاع الطرق المنتمون إلى قبيلة الهمامة من نهب جزء من الجيش النظامى عندما كان فى طريقه إلى القيروان قادما من سوسة»[2]. ويؤكد نائب القنصل الفرنسى فى صفاقس Mattei هذا الأمر فى إحدى مراسلاته إلى القنصل الفرنسى Léon Roches بتاريخ ١٨ يونيو ١٨٥٦م «الهمامة، قبيلة تقطن على تخوم الجريد الجزائرى[3] وقبيلة جلاص التابعة للقيروان لا تسمحان لأى قافلة بالمرور دون أن تفرضان عليها دفع فدية. وهاتان القبيلتان تسرقان وتنهبان من مناطق قبائلنا الجزائرية لمنطقة الصوف إلى حدود مداخل تونس. ومع ذلك، تتمتع القبيلتان بحماية قصر باردو وتتباهيان بالإفلات من العقاب»[4].

ذلك ما يتناقض مع ما يؤكده Pellissier أنه «فى كل سنة يتولى باى المحلة بنفسه أمر هذه القبيلة (الهمامة) وهو فى طريقه إلى الجنوب التونسى. أى إنه يفرض عليها ضريبة مرتفعة تقدر حسب أعمال النهب التى قامت بها خلال تلك السنة. ويجب ملاحظة أن

---

(1) Ibid, p. 147.

(٢) تحتفظ الذاكرة الشعبية فى منطقة سيدى بوزيد أن قطاع الطرق اقتسموا الغنيمة التى تحصلوا عليها بعد مهاجمتهم للمحلة بالكبوس، أى الشاشية التونسية. ولا تؤكد هذه الرواية متى حدث ذلك. وحسب رواية الرحالة الفرنسى تمت هذه العملية فى حدود سنة ١٨٣٩م.

(٣) يخطئ ممثل القنصلية الفرنسية بصفاقس فى تحديد مكان استقرار هذه القبيلة ولعله حدد مناطق نفوذ القبيلة. انظر الخريطة التى أوردها مبروك الباهى حول «مجال إغارات قبيلة الهمامة فى القرن ١٩» القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(4) Jamoussi (H), «Les archives paroissiales, une source d'historire régionle et locale: Les archives de l'église de Sfax comme exemple», in Recherches sur l'histoire des villages en Tunisie, Vicort, Faculte des Lettres et Des Sciences Humaines de Sfax 2008, p. 63.

هــذه الضريبــة تذهب إلى خزينة البيليك ولا يتحصل الذين وقع نهبهم على أى مقدار مالى منها»[1]. وقد تواصل تمرد هذه القبيلة إلى الفترة الاستعمارية إذ يفيدنا Mayet سنة ١٨٨٤م أن فيالق من الجيش الفرنســى تعرضت إلى ســطو القبائل الجنوبية المتمردة وبالتحديد فرع من قبيلة الهمامة[2].

مثّــل العهــد الحديث إذن زمن التحــولات التى تفاعلت فى بلورتهــا عناصر عدة أبرزها العامل السياســى وتشــكل الهوية التونســية تدريجيا باســتقلال الإيالة التونسية عن الباب العالى وقيام دويلات «محلية» ساســها العنصر التركى، إلا إنها تدرجت نحو تونســة دواليب الحكــم فى تأقلمها مع المعطيات الاجتماعية والثقافية المحلية. وفى هذا الإطار برزت البداوة التونســية فى طابعها المحلى وخصوصياتها السوســيوثقافية. وقد تبلورت هذه الخصوصيات حول القبيلة التونسية التى خلقت لنفسها ذاتية تمثلت فى التدرج نحو الاستقرار والتكيف مع المعطيات السياســية التى فرضتها السلطة المركزية والعلاقات الاجتماعية الجديدة فى إطارها الريفى المتطور وفى تباينها مع الظاهرة الحضرية. إلا أن البداوة التونسية لم تتخل نهائيا عن مخزونها الثقافى الذى كرسته «علاقاتها وتحالفاتها وسجل أعرافها وتقاليدها...»[3].

لكن، هل آل الأمر فعلا إلى تفكّك البداوة بانتهاء زمن التنظيم القبلى إن كان ذلك بفعل «الحدث الاستعمارى» أو بحكم التطور و«التحضر»؟![4].

تبدو هذه الإشــكالية فى صلب اهتماماتنا إذ ســاعدتنا آثار الرحالة الأوربيين فى رصد تطــور البــداوة فى تونس الحديثة. فقد وافانا هؤلاء الأجانب فــى بدايات الفترة الحديثة بصورة دقيقة عن مجتمع بدوى مشــتت يضرب فى عرض البلاد التونســية دون اعتبارات جغرافية ولا قيود سياســية معتمدا نمط عيش بدوى قوامه الترحال ورعى الإبل. مما أدى إلى اصطدام عنيف بين أولى التشــكيلات السياسية التركية وهذا المجتمع «الثائر بطباعه» و«المتوحــش» حســب العبارة الخلدونية. واتســم القرن ١٧ تحديدا بالصراع ســجالا بين

(1) Ibidem.

(2) Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien... op. cit., p. p; 87 - 88.

(٣) مبروك الباهى، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(٤) حسب مبروك الباهى، «لم يتحقق (استقرار القبيلة التونسية) بمجهود سلطة الحماية إذ إن عوامل تفكك القبيلة تمتد بعيدا قبل الحدث الاستعمارى» المرجع نفسه. انظر كذلك:

M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme...» op. cit.

السلطة المركزية والقبائل البدوية داخل البلاد فأينما حلت فرضت عليها الاستقرار والنظام الجبائى مجحف. ومع بوادر القرن ١٩ وتحديدا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر أصبح الحديث عن مجتمعين من البدو: «المستقرين والمرتحلين»، وعن التطور الواضح فى نمط عيش هؤلاء وأولئك نتيجة تداخل العوامل السياسية والتطور الاقتصادى الذى شهدته البلاد. فلا غرو إن اعتبرنا أن هذه نقلة واضحة فى حالة البدو فى تونس الحديثة واستنتجنا فى نهاية الأمر أن ظاهرة البداوة تدرجت قبيل الاستعمار الفرنسى إلى التلاشى بحكم عامل التكيف مع المعطيات السياسية والاقتصادية التى طبعت القرن ١٩ محليا بالإيالة التونسية وإقليميا بشمال إفريقيا. إلا أن تفكك البداوة لم يقض نهائيا على «ثقافة البادية» التى ظلت مترسخة فى مجتمع بدوى حافظ على مخزون ثقافى قد يعود فى بعض الأحيان إلى عدة قرون خلت.

٣ - الخصائص الثقافية للبدو فى تونس الحديثة:

خلصنا إلى أن البداوة تشير إلى «نمط عيش مادى وثقافى» متطور يرتبط ارتباطا وثيقا بمجال جغرافى محدود وبمجموعة بشرية معينة. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن أن نتحدث عن ثقافة بدوية تونسية تفاعلت فى بلورتها حضارتان: الحضارة العربية والحضارة البربرية أو الأمازيغية، واختزنت مضامينها الذاكرة الجماعية للبدو على امتداد القرون.

ولئن أهملت المصادر المحلية – خلال الفترة الحديثة – الجوانب الاجتماعية والثقافية لهذه الشريحة من المجتمع بسبب نظرة الاستنقاص «للأعراب» أو «العربان» «زريعة الخبث والفساد والأصل اللئيم...»[1] فإن آثار الرحالة الأوربيين جاءت تزخر بمادة ثرية تخبرنا عن مقومات هذه الثقافة البدوية التى سيقت بالكلمة وبالصورة فى بعض الأحيان. ولعل هذه المصادر تنفرد بما قدمته لنا من وصف دقيق للحياة اليومية للبدوى التونسى خلال الفترة الحديثة من كل جوانبها. وبما أن نسبة مهمة من عادات وتقاليد البدو ونمط عيشهم بصفة عامة قد اندثرت وتلاشت بحكم عاملى الزمن والتطور فإن ما ورد فى مثل هذه الآثار يصبح بالنسبة لنا مرجعا فى غاية الأهمية نتمكن من خلاله الوقوف على أبرز مقومات هذه الثقافة البدوية.

---

(١) ابن أبى دينار، المؤنس... ص ٢٣١.

١ - ثقافة البادية:

للبدو التونسيين مقومات ثقافية تختلف فى مجملها عن «ثقافة البادية» فى مناطق أخرى من الوطن العربى إذ إن عناصرها السوسيوثقافية هى نتاج اللقاح الذى حصل على امتداد القرون بين حضارتين عريقتين عربية وبربرية بحكم انتمائهما إلى الإطار نفسه الطبيعى الذى تستخلص منه هذه الثقافة عناصرها.

وقد وافتنا آثار الرحالة الأوربيين بأخبار متنوعة عن هذه الثقافة لما جبل عليه الرحالة أنفسهم من حب اطلاع ودقة ملاحظة حتى إنك تخال نفسك أمام مشاهد حية من الحياة اليومية للبدو رحلا كانوا أو مستقرين. ولئن صنف هؤلاء الأوربيين البدو على امتداد مختلف الفترات حسب جذورهم إن كانوا عربا أو بربرا وحسب لهجاتهم التى لفتت انتباههم أو حسب استقرارهم أو ترحالهم بين مختلف مناطق البلاد التونسية، فإنهم لم يفرقوا فى رصدهم لمختلف أوجه حياة البدو بين هذه الأصناف إن كان مستقرهم فى الجبال أو السهول أو الصحارى أو متنقلين بين هذه المناطق. فالبدوى خلال كامل الفترة الحديثة يتصف فى نظرهم بالأوصاف نفسها خصالا كانت أو عيوبا. وحتى خلال القرن ١٩ عندما نزعت البداوة إلى الاستقرار وتأقلمت بعض المجتمعات البدوية مع استقرارها فهى أبقت على طابعها البدوى و«ثقافتها البدوية». وقد لفت انتباه الرحالة الأوربيين أن البدو «هم أكثر الشعوب محافظة على عاداتهم وتقاليدهم... فهم يعيشون مثلما عاش آباؤهم الأولون. لهم العادات والتقاليد وطريقة التغذية نفسها ولهم اللباس نفسه...»[١]. كما أنهم «أعرضوا عن التحضر وما حدث فى المدن من تغيرات متواصلة أثرت على نمط عيش سكانها»[٢].

ويمكن أن نمحور أبرز ما ذكره لنا هؤلاء الأوربيون عن «ثقافة البداوة» فى صور أربع:

(أ) صورة البدوى:

قدمت لنا كتب الرحالة على امتداد الفترة الحديثة البدو بالكلمة والرسم والصورة الفوتوغرافية، منذ نهاية القرن ١٩، بكامل تراب البلاد التونسية، ووقفت على أدق الجزئيات كوصفها لبشرة البدوى وهيأته الخارجية ولباسه، مما مكننا من استكمال ما سبق

(1) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 49.

(2) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1, p. 390. 159.

من ذكر لطباعه ونمط عيشه وعلاقاته بالسلطة وببنى جنسه. وتبرز هذه الأوصاف التى انفرد بها الأوربيون، فى الاهتمام الخاص الذى حظى به هذا الرهط من التونسيين.

رسم كل الرحالة الصورة نفسها للبدوى الذى بدا لهم أقرب إلى الوحشية من حيث هيئته الخارجية، خلافا لكونه أسمر اللون، ذا بشرة تميل إلى السواد وأشعث الرأس، فهو حسب الوصف الذى قدمه Peyssonnel فى بداية القرن ١٨، لا يرتدى إلا «عباءة من الصوف يسمونها سوفيسالى[١] يصل طولها إلى أربعة أمتار وعرضها متر واحد. وتحل هذه العباءة محل القميص والجوارب والسروال والسترة والقبعة. يربط جزءا منها تحت يده اليسرى ويسقطها حتى الأرض ثم يرفعها على الجانب الأيمن ويضعها على رأسه»[٢]. ويضيف الأب Poiret فى نهاية القرن ١٨، أن «الأعيان والأشراف يتميزون بارتداء قميص كبير من الصوف طويل وعريض الأكمام يحمل فى أعلاه غطاء للرأس وينسحب على كامل جسمه إلى الأسفل، وتزينه شرابة من الحرير حول فتحة الصدر والعنق أما رؤوسهم فهى مغطاة بعقال قد من شعر الجمل...»[٣] بدو الصحراء[٤].

أما البدوية، فقد حظيت باهتمام أكثر من الرجل بل أثارت فضول هؤلاء الأجانب الذين سعوا بجرأة أكثر إلى التعرف عن قرب على محاسنها، على غرار ما قام به نائب القنصل الفرنسى Pellissier عندما دفعه فضوله للتكشف على فتيات كن يغتسلن فى واد مرق الليل متعللا بأنه ضل طريقه، فانبهر بجمالهن الطبيعى وهن نصف عاريات[٥].

ارتسمت تقريبا الملامح نفسها للبدويات فى آثار هؤلاء الأجانب خلال الفترة الحديثة مثلما صورهن أبو الحسن الوزان «مكتنزات شحما ولحما، أردافهن غليظة ونهودهن بارزة

---

(١) لعل السوفيسالى كان يطلق فى تونس على العباءة التى يرتديها الرجال فى البادية ثم أصبحت تشير إلى اللحاف الذى ترتديه النساء فى المدن عند خروجهن من بيوتهن للشارع ويتكون من قطعة قماش عريضة من الحرير غالبا، تضعنها على رؤوسهن وتربطنها على خصورهن برباط من القماش.

(2) Valensi (L), J. A peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis... op. cit.,p. 138.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 59; poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op. cit., p. 229.

(4) Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien... op. cit.

(5) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 206.

غـير أن خصورهن فى غاية من الرقة...»[1]. ويبدو أن السـمنة هـى إحدى مفاتن البدوية والحضرية على حد السواء، شأنهما فى ذلك شأن المرأة العربية عموما[2]. وتتباهى البدوية بسـمنتها بل تحاول إبرازها بلباسـها الفضفاض الذى يتكون من «قميص أسـود اللون له كمين واسـعين فوقهما غطاء أزرق أو أسـود تلتحفه وتشد جزءا منه بمشبك من الفضة على صدرهـا... ولكى تتباهى بجمالها تضيف البدوية الشـابة أشـكالا مختلفـة باللون الأزرق على أجزاء عديدة من جسـمها مسـتعملة شـوكة حادة ومحلول الزنك الخالص[3] وتكحل عينيها»[4]. كما تتجمل بحلى مختلفة، «فهى تضع أقراطا فى آذانها وحِلقٍ من الفضة وفى أرجلها (خلاخل) وأساور فى معاصمها (دبلج) على طريقة البلاد...»[5].

أثرت مختلف الحضارات التى تعاقبت على البلاد التونسية، وتحديدا البربرية والعربية، على مكونات وطرق التجميل لدى المرأة البدوية. فالوشـم والحناء والكحل والسـواك كلها طرق للتجميـل ورثتهـا البدويات – كما الحضريات – عن جداتهن البربريات والعربيات وعن أقدم الحضارات كالحضارة المصرية القديمة. فعادة التكحل هى فرعونية «استعملتها النساء والرجال على حد سـواء للتجميل وخاصة للتداوى من بعض الأمراض»[6]. يعطى التكحل جمالا للبدوية لا نظير له وسـر هذا الجمال يظهر جليا فى «النار المشـتعلة من عينيها...فهى تحذق إرسـال

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 59.

(٢) يذكر الطبيب الخاص لحمود باشـا باى Louis Frank أن النسـاء بمصر كن يتعمدن الأكل بشراهة ويضفن إلى طعامهن بعض الحشرات والزواحف Marcel (J. J), Tunis... pp. op. cit., 107.

انظر:

Jamoussi (H), «L'image de la femme tunisienne a l'époque moderne à travers les témoignages des Européens», Arab Historical Review For Ottoman Studies, n°33, F. T. E. R. S. I, septembre 2006, pp. 45 – 62.

(٣) يمدنا Peyssonnel بالطريقة التى تعتمدها الفتيات البدويات للوشـم: «تنشـر الفتيات على الأجزاء التى تريد وشمها مادة زرقاء حمراء أو سـوداء ثم تخز الجلد بإبرة حادة مشـكلة رسـوما حسب رغبتها. وهذه الرسوم لا تمحى فيما بعد. وحتى الرجال فهم يوشمون أذرعهم أحيانا» Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 139.

(4) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 88.

(5) Ibidem.

(6) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 394.

نظراتها ولا يمكن لأى امرأة أخرى أن تنافسها فى ذلك...[1]. «وحك الأسنان والشفاه بقشرة شجرة الجوز يعطى الفم رائحة طيبة. وحسب اعتقادهن يحافظ ذلك على الأسنان التى تبدو، فعلا، ناصعة ومصطفة...»[2]. أما الحناء فهى أشهر مواد التجميل على الإطلاق لأنها استعملت فى كل الحضارات. «خلافا لتخضيب الشعر تستعمل النساء أوراق شجرة الحناء بعد طحنها للتعطر فتضعنها داخل ثيابهن. كما أن لهذه النبتة فوائد على إثارة الشهوة الجنسيّة...»[3].

كما مدنا الرحّالة بطرائف الروايات الشعبية التىنسجت حول بعض البدويات التى راج صيتها بين القبائل. مجدت هذه الروايات جمالهن وشجاعتهن على غرار «الكاهنة» و«الجازية الهلالية». أمّا خلال الفترة الحديثة فقد برزت بعض النساء الأخريات من بينها «علجية» بنت شيخ قبيلة النمامشة التى دوخت الأتراك فى نهاية القرن ١٧ عندما قادت فرسان قبيلتها وواجهت عساكرهم الذين داهموا القبيلة المغيرة لإذعانها وهزمتهم[4]. أو «الغالية» بنت شيخ جرجيس التى قابلها Pellissier وانبهر بجمالها وشجاعتها «التى تضاهى شجاعة الرجال؛ إذ كثيرا ما كانت تتواجد فى الصفوف الأولى من المعارك تقود فرسان قبيلتها»[5]. وبصفة عامة، كانت «النساء ترافق الرجال فى رحلاتهم وحروبهم لتشجيعهم وللاطمئنان بوجودهن إلى جانبهم[6]. يحملونهنّ فوق الجمال فى شبه نقالات من الخيزران لا تسع إلاّ لشخص واحد»[7].

(ب) الكرم من شيم البدو:

لم يكن الكرم مصطنعا فى حياة البدو بل هو إحدى شيم العرب قاطبة والبدو على وجه التحديد. ولقد اعتبر صاحب المقدمة أن «البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر» حتى «وإن

(1) Pananti (F), Relation d'un séjour à Alger... traduit de l'anglais par Normant, Paris, 1820, p. 342.

(2) Marcel (J. J), Tunis, description de cette Régence... op. cit., p. 106.

(3) Ibid, p. 108.

(4) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 176.

(5) Pellissier (E), Description de Régence de Tunis op. cit., pp. 165 - 166.

(٦) منذ الجاهلية كانت المرأة تتباهى بمرافقتها للرجال فى ساحة الوغى وتنسج لذلك أشعارا على غرار: نحن بنات طارق، نمشى على النمارق، إن تقبلوا نعانق، إن تدبروا نفارق.

(7) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 88.

كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم (أهل الحضر)... فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد ما ينطبع فى النفس من سوء الملكات...»[1]. وقد أكّد كلّ الرحّالة الأوربّيين بدورهم ودون استثناء، هذه الخصال لدى كلّ البدو الّذين اعترضوا سبيلهم. بل إنّ البعض اعتبر «حسن الضيافة» إحدى القيم «الصادقة» التى حافظت عليها هذه الشعوب على «فطرتها» وطبيعتها البدائيّة فى حين اندثرت فى أوربا وأصبحت «مفتعلة»[2].

وحسب Dr Shaw، «الكرم هو عادة قديمة أصبحت بمثابة قانون لدى هذه الشعوب إذ إنّهم يقدمون للصبايحى[3] ولكلّ من كان معه «المونة»[4]، أى الزاد الضرورى لهم ولخيولهم». بل إنّ الاستقبال كان غالبا ما يتعدّى حدود الواجب نحو ممثل السلطة. وحسب الوصف الذى مدنا به هذا الرحالة الشهير، يتنافس أصحاب الخيام على استقباله وإيوائه بصحبة رفقته. وكلّما حلّوا بدوّار أو بتجمّع بدوى، أسرع البدو بالاحتفاء بهم فيقدّمون لهم «أوعية كبيرة من الحليب وسلّة من الغلال والفواكه فى بداية الأمر ثمّ يقومون بذبح شاه أو خروف أو ماعز على شرفنا...»[5].

وانبهر الكاتب الفرنسى الشهير Flaubert [6]من ناحيته بالحفاوة[7] التى حظى بها عندما استقبلته النساء بالزغاريد بينما كان صاحب الخيمة يذبح أكبر خرفانه، ثمّ تلذّذ بأكله الكسكسى مع حليب الناقة. وانتهت المأدبة بأن خصّصوا له أفضل الخيام لقضاء ليلته. وذكر Guérin من ناحيته أنّه ما مرّ بإحدى قبائل البدو الرحّل أو المستقرّين إلاّ وأكرموه وأقام بينهم تحت خيمة نصبت له خصيصا وذبحت له ولمن رافقه الخرفان[8].

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(2) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op. cit., p. 229.

(٣) الصباحية هم الشرطة فى المدن. خصص البايات هؤلاء لمرافقة الأجانب عبر مناطق الإيالة لحمايتهم.

(٤) هى عادة فرضها البايات على القبائل عند مرور «المحلة» بأن تقدم للباى وحاشيته ولخيولهم «مؤونتهم». ثم أصبحت بمثابة قانون يجبر كل المجموعات البدوية على تقديم الغذاء والراحة لممثلى السلطة ومرافقيهم.

(5) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, introduction.

(٦) هو من أشهر الكتاب الفرنسيين. زار تونس فى نهاية خمسينيات القرن ١٩ لجمع المعلومات لكتابة قصته الشهيرة «صلامبو».

(٧) عبّر عن هذه الحفاوة «بالتربية البدوية».

Flaubert (G), Carnet de voyage à Carthage, texte établi par Claire – Marie elavoye, publication de l'université de Rouen 1999, p. 146.

(8) Guérin (V), Voyage archéologique... op. cit., t. 2, op. cit., p. 358.

(جـ) الاحتفال والشعر والغناء:

هى عناصر ثلاثة لا يمكن التفرقة بينها؛ إذ إن المناسبات الاحتفالية المتمثلة أساسا فى الأعراس لا تتمّ إلا إذا التقى فيها الشاعر والمغنى وفى غالب الأحيان يكون المغنى هو نفسه شاعرا. إلا أن الأوربيين، بحكم اختلاف ثقافتهم الغربيّة لم يستسيغوا الأهازيج البدوية بل اعتبروهـا ضربا من ضـروب «الضجيج» الذى لا يعتمد على مقاييس ثابتة أو علمية ويتمثل فى نغمة واحدة يكرّرها الشـاعر فى كلّ المناسبات. ومع ذلك، تعجبوا من قدرة البدو على الارتجال وإلقاء القصائد الغنائية على امتداد سـاعات[1]. ويؤكد Shaw أن لهم قدرة غريبة على «حفظ الألحان معتمدين على السـمع فقط دون العودة إلى الكتب... وقد اسـتمعت إلى بعضهم يتغنون طوال الليل دون أخطاء ودون أن تظهر عليهم ملامح التعب»[2].

كما وافانا الرحالة نفسـهم بوصف دقيق لبعض الآلات الموسـيقية المستعملة كآلة «الربابة» وهى عبارة عن كيس له خيط واحد، و«الفصبة» وهى نای كأبسـط ما يكون فتح من طرفيه وبه ثلاثة أو أربعة ثقوب. أما الطار البدوى فهو آلة إيقاع أحاطوا جوانبها بصفائح صغيرة مـن الفولاذ. وعندما تصطدم ببعضها، حسـب قوة الضربات علـى الجلد، تحدث أصواتا أو إيقاعـات عذبـة عند سماعهـا»[3]. أما أطرف مـا وافانا به هذا الرحالـة هو مقتطفات لبعض الأغانى البدوية اعتمد ترقيمها حسـب السلم الموسيقى بحيث يمكننا قراءة ألحانها ومقارنتها بما توارثته الأجيال من موسيقى بدوية[4].

(د) الصيد والغذاء:

امتـازت حيـاة البدو بشـظف العيش والأقـوات «يتناولون بها يسـيرا بعلاج أو بغير عـلاج»[5]. ويعتمـد غذاؤهم على إنتـاج الأراضى التى يفلحونها لذلـك «تختلف عاداتهم وطريقة معايشـهم باختلاف المناطق التى يقطنونها... فعرب إفريقية بين الأطلس والبحر

(1) Marty (P), «Les Chants lyriques populaires du sud tunisien : étude, textes et traduction», in Revue Tunisienne, n° 25, 1 er trim. 1936, pp. 93 – 136.

(2) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 349.

(3) Ibidem.

(4) Ibidem.

(٥) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٥١.

المتوسط، يحرثون الأراضى الخصبة ويحصلون منها على كميات وافرة من الحبوب»[1]. يستخرج البدو من هذه الحبوب أنواعا مختلفة من الأكلات التى لا تزال تمثل الغذاء الأساسى للمناطق الريفية عموما. وقد مدّنا Peyssonnel بقائمة من أشهر هذه الأكلات: «فخلافا للكسكسى[2]، يأكل البدو فى المناطق الخصبة «البازين» وهو طحين القمح يخلط بالماء والعسل ويطبخ فى قدر من الفخار حتى يبيبس... كما يأكلون «البسيسة» وهى طحين الحمص والشعير يخلط بالماء، وفى بعض الأحيان بالحليب. كما يأكلون «العصيدة» وهى كذلك طحين القمح يضيفون له الحلبة ويطبخونه فى شكل ثريد... ويكتمل غذاؤهم ببعض الفواكه التى تنبت فى مناطقهم...»[3].

أما الخبز المتوفر لدى المجتمعات الحضرية، أو الرغيف حسب تسمية بعض المناطق، فهو غذاء نادر «يخصص للمناسبات أو عندما يحل عند البدو ضيف مبجل». وتتم صناعته على مراحل. «فبعد فصل حبات القمح أو الشعير عن قشرته الخارجية تقوم النساء برحيه برحى يدوية ثم غربلته وأخيرا تقمن بعجن الطحين المتحصل عليه بالماء أو بالحليب أو بالزيت. يطبخ ذاك العجين فوق الرماد أو فى أوعية فخارية»[4] فى المناطق الصحراوية، وهى «ثريه بمختلف أنواع الحبوب والأشجار، خلافا لما يتهيأ للبعض، تنبت غراسة ثمينة طولها قدر قدمين وتخرج حبة الدرع التى تعوض قمح المناطق الأخرى. يكتفى أغلبية سكان المناطق الصحراوية بطحين الدرع الذى يصنعون منه عجينا يضيفون له حليب الناقة ويطبخونه فى قدر من الخشب على حجارة احمرت فى النار، وهى طريقة بدائية نجدها لدى الشعوب الآسيوية أو الأمريكية...»[5].

اعتمد البدو لاكتمال غذائهم على صيد الحيوانات البرية إن كان ذلك فى الغابات أو المناطق السباسبية أو حتى فى المناطق الصحراوية التى كانت تعيش بها أنواع مختلفة

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 60.

(٢) وهى أكلة البربر من أقدم العصور، توارثها الأجيال وانتشرت فى كامل أرجاء شمال إفريقيا.

(3) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 242.

(4) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

انظر كذلك Peyssonnel فى ذكر مطول عن طرق أخرى لصنع الخبز وعن مختلف أنواع الأكلات البدوية.
Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 141.

(5) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

من الحيوانات البرية. يذكر Venture De Paradis فى نهاية القرن الثامن عشر أن المناطق الصحراوية: «ثرية بالأرانب البرية والغزلان الصحراوية والجواميس الوحشية والأسود[1] والنمور[2]. أما الطيور فهى عديدة ومتنوعة وخاصة منها ذاك النوع الضخم الذى يهدى ريشه للجميلات الأوروبيات كى تتحلين به. أما لحم النعام وبيضه فهو يلعب دورا أساسيا فى الدورة الغذائية لسكان المناطق الصحراوية الرحل. ويمثل ريش «الجمل المجنح»[3] أهم المنتوجات الفلاحية التى تعرض فى الأسواق الأوروبية»[4].

يحدثنا Frank مطولا عن صيد النعام فيقول: «يركب الصيادون خيولهم بعد أن يتأكدوا من كونهم حملوا معهم نصيبا من ماء الشراب. تبدأ عملية الصيد فى حدود منتصف النهار فى الفترة التى تتجمع فيها النعامات فى مجموعات تعد بالمئات. عندما تفطن النعامات لوجود الصيادين تفر فى كل الاتجاهات، وعندها ينطلق الصيادون خلفها. تتواصل عملية التسابق هذه فى بعض الأحيان أربع ساعات بدون انقطاع إلى أن تنهار الحيوانات من شدة الإرهاق وتشل حركتها وتتوقف نهائيا عن الجرى. عندها ينزل الصياد من حصانه ويقطع رأس النعامة ويضع الجثة على ظهر الجمل ثم يعود للبحث عن طريدة ثانية. وقل أن يتحصل الصياد على أقل من نعامتين»[5]. يسلخ الصياد جلد النعام «بضرب الجسم بقبضة اليد حتى ينفصل الجلد عن العظام. ثم يقوم بإخراج مواد النعام الدسمة أولا فى شكل سائل يضعه فى وعاء. وعندما يتجمد يستعمل كدواء لجبر الكسر ولبعض الأمراض الجلدية الأخرى»[6].

تطالعنا فى بعض الأحيان طرق طريفة لصيد حيوانات برية أخرى ذكرها رحالة كانوا قد سمعوها عن سكان البادية. فلصيد الغزلان، «تقلد النسوة ثغاءها الرقيق لجالبها ثم يتولى

---

(١) اندثر الأسد الصحراوى والأطلسى منذ منتصف القرن التاسع عشر إذ إن آخر من تحدث عن الأسود والفهود فى تونس هو Dunant الذى أقام فى تونس ما بين ١٨٥٦م و١٨٥٧م. ويذكر Andre Louis أن آخر أسد قتل فى جبال خمير سنة ١٩٣٢م.

(٢) لعله يعنى الفهود وهى بدورها اندثرت فى الفترة نفسها.

Louis (A), Nomades d'hier et d'aujourd'hui dans le sud tunisien, édisud, Aix - en - province, 1979, p. 101.

(٣) هى عبارة أطلقها الأوربيون على النعام منذ القدم.

(4) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 51.

(5) Marcel (J.J), Tunis, description de cette Régence... op. cit., p. 123.

(6) Louis (A), Nomades d'hier,... op. cit., p. 110.

الرجال قتلها»[1]. كما «تتولى النساء كذلك جلب أنثى الضباع بالزغاريد ثم يتقدم نحوها أحد الصيادين قائلا: تعالى يا جميلتى سوف نخضبك بالحناء ونزوجك ونهديك حليا... عندها تتقدم الضبعة فيمسد الرجل على قدمها ويطليه بروث البقر واضعا حولها عقدة يجرها الصيادون الذين يرافقوه ثم يلجمون فم الحيوان»[2]. أما الأسود فهى كانت تروع المناطق الجبلية وتهاجم القرى والدواوير فتقتل الأبقار والخرفان. لذلك يقوم الرجال من حين لآخر بحملات شاسعة ضد هذه الحيوانات الوحشية. «ويقال إن الأسد يخاف النساء أكثر من الرجال وأن بعض النسوة يهاجمن الأسد وهى تصيح فى وجهه فاتحة صدرها: ألا ترى أننى امرأة. فيتراجع الأسد موليا إلى الوراء»[3].

٢ - ثقافة الترحال

(أ) النجعة

تدرجت حياة بعض القبائل، وتحديدا تلك التى سكنت المناطق الوسطى للبلاد التونسية، نحو الاستقرار فى مناطق محددة خلال القرن ١٩، بينما أبقت قبائل أخرى على ترحالها كنمط عيش ارتبط مباشرة بظاهرة حضارية توارثها الأجيال عبر القرون. فالهجرة الجماعية، أو «النجعة»، حسب العبارة البدوية، مثلت إحدى مقومات حياة البدوى خلال الفترة الوسيطة وحتى الفترة الحديثة، وهى مرتبطة ارتباطا وثيقا بتمسك البدو بحريتهم المطلقة فى الطبيعة دون قيود تجبرهم على الاستقرار فى مكان واحد أو الإكراه على العيش داخل تجمعات حضرية. وفى صور استقرار بعض القبائل فى مناطق متاخمة للمدن الكبرى، بحكم معاملاتها التجارية مع أهاليها، فإنها تبقى على نصيب من حريتها للانتقال فى أى وقت تشاء إلى مناطق أخرى..

لاحظ جل الرحالة الأوربيين الحركية التى كان عليها الوسط التونسى على امتداد السنة؛ فالقبائل تتنقل فى شكل جماعى فى كلّ الاتجاهات، ومن بينها، ذكر Pellissier

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 135.

(٢) قد يكون المثال التونسى «حصل كيف الضبع» أى حصل فى الفخ مثل الضبع وقع استقاؤه من طريقة صيد الضبع هذه.

Flaubert (G), Carnet de voyage... op. cit., p. 35.

(3) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 168.

إحـــدى القبائل اليهودية التونســية، «وهى من بطون قبيلة دريـــد، يتكلم بدو هذه القبيلة العربية ويتمســكون بعادات وتقاليد القبائل العربيـــة الأخرى. ولا يختلفون عنهم إلا دنيا. بعضهـــم حدادون وبعضهم صائغون والبعض الآخر مـــن الفلاحين أو رعاة. يهود فلاحون، إنها فعلا غرابة يجب أن نلفت لها الانتباه...»[١].

للنجعة قوانينها وترتيباتها التى سارت عليها القبائل التونسية منذ القدم كما يؤكد ذلك أحد شيوخ قبيلة المرازيق لباحث فرنسى فى بداية القرن ٢٠: «كان مرازيق هذه الفترة (قبل دخول الاستعمار) يرحلون كلهم، ما نسميه «ترحال الكل»... ولا يبقى فى الدوار إلا بضعة عائلات، تلك التى لا تملك «لا باعْ ولابعْ»[٢]. وهى التى تتولى حراسة الدوار وسقى النخيل. وفى بداية فصل الشتاء[٣] يتقرر اليوم الذى يتم فيه الرحيل[٤]. عادة ما يكون الإثنين إذ إن يوم الأربعاء يتطير منه أهالى القبيلة ويوم الجمعة يخصص للراحة. قبل ذلك، تكون النسوة قـــد أعـــدت الخيام وما يلزم من المؤونة[٥] فى احتفال بهيج. كما تقوم النســـوة كذلك بزيارة زوايـــا الأولياء الصالحين حيـــث تجمع بعض الحجارة التى تحتفظ بها طوال الرحلة وذلك لحماية الرحل من الأمراض ولقذفها فى وجه العدو إذا تمت مهاجمة القبيلة»[٦].

وقد تغنى شعراء قبيلة المرازيق «بالنجعة»[٧]:

نجع الرحيل

---

(1) Fallot (E), Une excurion à travers la Tunisie... op. cit., p. 9.

(٢) بمفهوم «لا جمل ولا شاه».

(٣) قد يوافق الموعد بداية فصل الربيع بالنسبة لقبائل المناطق الشمالية.

(٤) يعود قرار الرحيل «لميعاد» القبيلة وهو مجلس كبار القوم الذين يقررون كل ما يهم شئون القبيلة.

(٥) تتمثل المؤونة أو الزاد فى «نوع من طحين الشـعير أو القمح يقع عجنه بالماء أو بالحليب والشـريح» أى التين المجفف.

انظر: Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

(6) Boris (G), Documents linguistiques et ethnographiques sur une région du sud tunisien (Nefzaouo); Paris, 1951; p. 56.

(٧) جمع أحد القادة العسكريين الفرنسيين فى بداية القرن العشرين أشهر القصائد لقبيلتى ورغمة والمرازيق بالجنوب التونسى وأغلبها يعود إلى القرن التاسع عشر.

Marty (P), «Les Chants lyriques populaires du sud tunisien: étude, textes et traduction», in Revue Tunisienne, nº 25, 1 er trim. 1936, pp. 93 – 136.

هز فى الليل (حمل ليلا)

ساق المراحيل (الإبل التى ترحل)

من بكرة الفجر سارى (فى الفجر ساروا)

لا ضو لا ثم قنديل

عالبل تحميل (تحملهم الإبل)

مياح القمر طلعت سهيل (ضوء القمر سهل السير)

هز النسا والذرارى (الذرارى: الأطفال الصغار)

أولاد ركبت عالخيل

أهل السيوف المصاقيل (السيوف المصقولة)

أهل الثنا والفعاعيل (أهل الثناء والأفعال الحميدة)

أهل البلا والخطارى (تركب البلاء و الأخطار)

شرّق وقبّل تقبيل (شرقت وقبّلت فى سيرها)

لا بات لا حط الثقيل (ساروا دون توقف)

طوح و خش الصحارى (ساروا المسافات البعيدة و توغلوا فى الصحارى)

تحوّم على مازق السيل (تبحث عن السيول الجارية)

ربيعه فاتح تخابيل (فتح ربيعها بكل ألوانه)

تبلاّت الغنم والبكارى (أكلت وتغذّت الغنم والنوق الصغير البكر)

باقل و شيح و قنديل (أعشاب صحراوية)

عود الرتم و الزهارى

نزلوه فى ساعة وقبيل

أهل الطرب والطبابيل

يلقوه عامل جراويل (الجراويل: السيول الجارية)

صنعة خليقة البارى

لا سوق لا يعرفو كيل (لا يتاجرون ولا يستعملون كيلا)

أهل التظاليل (الخيام التى تظلّل عليهم)

أهل الغنومات بالهيل (لهم الأغنام بدون حساب)

أهل الأعياد الجرارى (حياتهم كلّها أعياد جارية)
ما يسكنوش المقافيل (لا يسكنون البيوت التى تقفل)
كان الخلا والبرارى
يدوّرو على الفتن تعميل (يبحثون على الفتن قصدا)
بين المنازيل (ما بين المنازل)
يطاعنوا بالغدارى (يطعنون بالسكاكين)
نحوى على لابسات الخلاخيل (ويلى من لابسات الخلاخل)
منهم سبايب غيارى (من أجلهن أغير)
نيران جاشى مشاعيل (نيران قلبى تجوش)
زى المفاتيل من أم عيون المذابيل (مثل الشمع المحترق)
شعلت مقايس نارى (اشتعلت نيرانى)

(ب) الخيمة والدوار

تمثّل الخيمة العنصر الأساسى الذى ترتكز عليه حياة البدوى؛ فهى بيته الذى يلجأ إليه فيحميه من الحرّ والبرد. وفى تجمّعها أمان له ولأرزاقه وأبنائه. عند استقرار القبيلة، تضرب الخيام فيصل عددها فى بعض الأحيان إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ خيمة. وهى تشكل «قرى محمولة ينقلها أصحابها من هنا وهناك فى أى وقت بحثا عن المراعى. وينظم الأعراب الخيام فى شكل دائرى الواحدة قرب الأخرى تاركين مدخلين الأول مخصص لدخول وخروج الأهالى والثانى لإدخال وإخراج الدواب. يقع غلق هذين البابين ليلا بأغصان الأشجار والقش، فتقوم الخيام بذلك بدور الحصن الحامى للسكان والدواب المجمعة فى الوسط من الحيوانات الوحشية كالأسود والغارات الخارجية»[1].

«تسمى الخيام – تلك القوارب المقلوبة – بهذا الاسم، نظرا للظلال التى توفرها، كما تسمى بيت الشعر... تصنع هذه البيوت بالطريقة نفسها التى صنعت بها منذ العهد الرومانى من شعر الإبل. كلها تتشابه ولا تختلف إلا فى حجمها، حسب عدد الأشخاص الذين يسكنونها. يحمل القماش الذى صنعت منه على أعمدة، وتقسم بداخلها عن طريق

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 191.

ستائر إلى شبه غرف. يدق صاحب الخيمة على الأعمدة معقّفاة من المعدن حيث تعلق الثياب والآلات الفلاحية وسروج الخيول والأسلحة...»[1].

يمتلك شيخ القبيلة أكبر خيمة وهى ميزة والعلامة الدالّة على رفعة مكانته بين أفراد المجموعة. وقد انبهر Fallot بإحدى هذه الخيام إذ لم يكن يتوقع كبر حجمها. «يبلغ وسط الخيمة، بدون مبالغة ارتفاع الطابق الأول لعمارة ذات أسقف مرتفعة. يفصلها فى الوسط ستار كبير يقسمها إلى نصفين متساويين. يخصص أحدهما للنساء والأطفال. وعند الرحيل يتطلب حمل هذا البيت المتميز عدة جمال»[2].

الخاتمة:

اعتمادا على آثار الرحالة الأوربيين تتراءى لنا صورة البدوى التونسى خلال الفترة الحديثة مثلما رسمها لنا أجانب عن الحضارة العربية. صورة اعترتها فى بعض الأحيان قلة الوضوح والاستغراب بحكم انتماء هؤلاء الثقافى، وعدم قدرتهم على فهم حياة البداوة فالتجأوا غالبا إلى معاييرهم الغربية للحكم على هذا النمط من العيش.

إلا أن دقة الوصف والوقوف على جزئيات حياة البداوة على امتداد الفترة الحديثة ساعدنا على رصد ديناميكية البداوة فى تونس الحديثة وذلك من حيث تطورها من نمط عيش اعتمد على الترحال أساسا خلال الفترة الوسيطة وبوادر الفترة الحديثة إلى شبه استقرار عندما تشكلت خصوصيات القبيلة التونسية وارتبطت بالأرض وبالتالى «بالموطن»، فإلى الاستقرار النهائى منذ منتصف القرن ١٩، قبيل الاحتلال الفرنسى. وما قام به الاستعمار فى مجال فرض الرقابة على القبائل التونسية المتحركة والمتنقلة من الجنوب نحو الوسط والشمال لا يفسر بمفرده الاستقرار النهائى للقبائل التونسية فى «موطن»[3] محدد. فالعوامل التى دفعت بالقبائل إلى الاستقرار متعددة وهى سابقة للفعل الاستعمارى تمثلت أساسا فى تتبع السلطة المركزية القبائل أينما حلت وفرض نظام جبائى مجحف عليها. كما ساهم تطور المجال الجغرافى/ الاقتصادى فى تونس الحديثة فى تطوير نمط عيش البدو نحو الاستقرار.

---

(1) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 369.

(2) Fallot (E), Une excurion à travers la Tunisie... op. cit., p. 8.

(٣) غالبا ما يكون الحديث عن «وطن» القبيلة أى المنطقة التى تستقر فيها وبطونها وتدافع عنها من القبائل الأخرى المنافسة لها أو المغيرة.

وتمثلت الإشـكالية الأم التى حاولنا إبرازها من خلال دراسة الواقع البدوى فى الإيالة التونسية فى الفترة الحديثة، فى الوقوف على أبرز مظاهر الثقافة البدوية التونسية والتأكيد على تشـكل بداوة تونسـية صرفة بحكم الواقع الجغرافى والسياسى والاجتماعى والثقافى الـذى تميزت به تونـس خلال هذه الفترة. ووافتنا آثار الرحالـة الأوربيين فى هذا الصدد برصيـد هائـل من المعلومات والإخبار عن هذه الثقافة البدوية مما سـاعدنا على بناء صورة حياة البدو من كل جوانبها بعاداتها وتقاليدها وأفراحها وأتراحها فى استقرارها وترحالها. وهذه العادات تمثل فى نهاية الأمر مخزونا ثقافيا تلاشى بحكم عاملى الزمن والتطور. ذلك ما لم نعثر عليه فى المصنفات التونسية.

لكـن، هل آثار الرحالة الأوربيين هذه كافية للوقـوف على دقائق حياة البدو وثقافتهم خلال الفترة الحديثة؟

نطرح هنا إشـكالية المصادر التاريخية وتنوعها؛ فبقـدر ما يمكن الاعتماد على المصادر الغربية لكتابة التاريخ المحلى، على أسـاس أنها تنفرد ببعض الأخبار التى يتحاشـاها أو يجهلها المؤرخ التونسـى، بقدر ما يجب أن نتخذ كل الاحتياطات من مزالق هذه المصادر والمتمثلـة فى النظرة المنغلقة للأوربيين ضمـن المرجعيات الغربية التى اعتمدوها فى فهمهم «للآخرين»، مثلما سبق وأشرنا إليه أو نظرة الاستعلاء الأوربية أو كذلك الأخطاء التى يقع فيها هؤلاء الأجانب عن الحضارة العربية الإسلامية من حيث الإحصائيات التى يقدمونها وأسماء الأعلام التى لا يحسنون نطقها وكتابتها.

❑❑❑